من سرق روايتي؟

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية **12**
هاتف **4638688 6 00962** ، فاكس **4657445 6 00962**
ص.ب: **7855**، عمّان **11118**، الأردنّ
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية **34**

◆

من سرق روايتي؟ / قصص قصيرة
عبد الغني سلامة / فلسطين

◆

الطبعة الأولى، 2016
حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف **95297109 7 00962**
®
لوحة الغلاف: سيروان باران / العراق

◆

الصفّ الضوئيّ: **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف **95349156 7 00962**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أيّ جزء منه، بأيّ شكل من الأشكال، إلّا بإذن خطّيّ مسبق من الناشر.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (2015/10/5291)

الترقيم الدولي: ISBN 978-9957-39-099-0

قصص

عبد الغني سلامة

من سرق روايتي؟

الأهلية

إهداء

إلى عالمٍ لم نزره بعد،

ووعد قطعناه على أنفسنا،

وأمل تمسكنا بأهدابه،

وحلم عشنا لأجله،

إلى لحظة انتظرناها طويلًا،

ستأتي عمّا قريب، حتمًا ستأتي،

إليكِ وحدكِ، حبيبتي،

فأنتِ وحدك، من آمن بي... وصدقني!

عبد الغني

كلمة شكر وامتنان

بعد صدور مجموعتي القصصية الأولى، والتي حملت عنوان «قبل أن نرحل» (صدرت عن الاتحاد العام للكتّاب والأدباء الفلسطينيين، نيسان 2015)، تبين وجود بعض الأخطاء اللغوية والإملائية. في هذه المجموعة «من سرق روايتي» اجتهدتُ أن تخلو من أي خطأ لغوي أو نحوي أو إملائي. ومن أجل ذلك أرسلتها لعدد من النقاد لتصحيح أي خطأ من أي نوع، وللأخذ بآرائهم وتوجيهاتهم، ولذلك وجب التقدم بالشكر والامتنان للأصدقاء الأعزاء على ما بذلوه معي من جهد كبير، كان له أثر واضح في إحداث الكثير من التغييرات على بنية وأسلوب هذه المجموعة؛ فيسعدني أن أشكر كل من: الأديبة السورية د. نجاة عبد الصمد، والناقد الفلسطيني الأستاذ عزيز العصا، ومن عمّان الأخ العزيز الأستاذ زياد سلامه، والصديق المدقق اللغوي الواثق بالله طه. وفي حال وجود أي خطأ فلا أحد يتحمل مسؤوليته سواي.

والشكر الموصول طبعا، لزوجتي الحبيبة خلود، ملهمتي الأولى، والتي ظلت تشجعني وتصوّبني، فلها ولأولادي الأعزاء يزن ووائل وياسمين كل الشكر، على صبرهم معي، لأن

الكتابة كانت دوما على حساب الوقت الذي من المفترض أن نمضيه معاً.

كما يسرني أن أشكر جميع الأخوة والأصدقاء والقراء الأفاضل على ما تفضلوا به من أراء ونقد وتوجيه، سواء للمجموعة القصصية الأولى، أم للقصص التي تضمها دفتا هذا الكتاب، والتي نُشر العديد منها في الصحف المحلية، وعلى مواقع التواصل الاجتماعي.

من سرق روايتي؟

أنهيتُ الفصل الأول، من رواية كنت أرغب بكتابتها منذ زمن، أنهيته بصعوبة بالغة، وفي نصف الساعة الأخيرة شعرتُ بنداء النوم يدب في أوصالي حتى كاد جسمي يستسلم. أطبقت المخطوطة وتركتها على الطاولة، ثم غادرت على الفور، في الليل أخذتُ اقترح مسارات جديدة لأبطال الرواية، وكلما تخيلت أحدها زادت لهفتي لأعود في اليوم التالي لأكتبها قبل أن يبتلعها ظلام الغرفة، أو يطويها النسيان.

في الطريق إلى العمل، تذكرت مآلات الفصل الأول، وخيالاتٍ عامة لنهاية تراجيدية ما زالت غامضة في ذهني، لكني حين دخلت مكتبي كانت المفاجأة أن المخطوطة لم تكن على الطاولة، ناديت على المراسل بعصبية مكبوتة لأسأله إذا ما كان قد أخذ شيئًا عن طاولتي؛ فأنكر بشدة. سألت بعض الزملاء؛ فأبدوا استغرابهم من السؤال.

في داخلي، وبقدر ما شعرت بالغضب، راودني شعور خفي بالسعادة؛ فهناك من يهتم بالقراءة، وما زال في هذا الزمن من هو على استعداد لسرقة «رواية». هذا يبشر بمستقبل أفضل، ولكن

الأمر يتطلب مني البدء من جديد، ويعني أن تعبي راح بلا مقابل، واسيتُ نفسي بأن ثمة معجبة بي تتلقف ما أكتب، لدرجة أنها لم تصبر حتى أنهي ما بدأت. حينها لمعت في ذهني فكرة ماكرة؛ سأكتب رواية جديدة، وسأترك «المعجبة» في حيرتها، حتى يدفعها فضولها لسؤالي عن مصير «لمياء».

في اليوم التالي، وقبل نهاية الدوام، كنت قد أنهيت فصلين كاملين لرواية لم أحدد اسمًا لها بعد، لكنها تدور حول أهوال الحرب، وعذابات الجنود وقلق زوجاتهم، وخوف أطفالهم من القصف. تعمدت تركها على الطاولة لأرى إن كان سيأتي لصٌ أو معجبةٌ لسرقتها مرة ثانية، وبالفعل عندما عدت في الصباح كانت الرواية قد اختفت.

جلستُ أنتظر وأراقب عيون الموظفين. قلت سيأتي إليّ أحدهم بعد قليل ليقول: تصور يا أستاذ، ليلة أمس لم أنم لحظة واحدة... سأسأله: لماذا؟ سيجيبني بعفوية: بسبب كتابٍ لعين، قرأت فصلاً مرعبًا منه، فأغلقته على الفور، وذهبت للنوم، فإذا به يمشي على أربعة أحرف ثم يجلس على مخدتي، ويفتح صفحاته عن أشد اللقطات رعبًا، وعندها أغمضت عيني لكنه فتحها، ثم غطيت رأسي فهز غطائي، مصمّمًا ألّا أنام قبل أن أنهي قراءته. وبقيت أنتظر هذا الزميل المرعوب؛ إلى أن جاء «عبد الكريم» يمشي وهو يتثاءب بعينين ذبّلهما النعاس. انتظرته ليبدأ في سرد أحداث ليلته الغريبة، لكنه لم يفعل. هل أتهمه بالسرقة بدليل أنه نعسان!؟

على ورقةٍ وحيدة، كتبت حوارًا سريعًا بين النخلة والريح، في اليوم التالي سمعت «نبهان» يدندن بأغنية النهر الخالد بصوت يكاد

يشبه صوت عبد الوهاب، ويبتسم لي بخبث. فكرت أن أكتب فيه تقريرًا وأتهمه بالابتسام والطرب، لكنني عدلت عن الفكرة، لأن أحدًا لن يصدق أن «نبهان» المثقل بهموم الكون يغنّي. حتى المدير الذي رفض أن يساهم في ثمن هديته حين رزق بمولود ذكر، سيزاود عليَّ قائلا: تستكثر عليه الفرح!

بعدها، كتبتُ قصة ساذجة عن رجل تدرب على القفز، حتى صار بمقدوره أن يلمس الغيم، فيعصرها لتتساقط عليه كسفًا من ذهب. في اليوم التالي ضبطتُ عشرة موظفين على الأقل متلبّسين في حالة تفاؤل، وبعضهم كان يحاول القفز.

ثم كتبتُ عن الأم، وعن عيد الحب، وتركتُ القصة على المكتب، وكالعادة اختفت، في الصباح كانت أعدادٌ إضافية من الموظفين والموظفات يحملون في أيديهم باقاتٍ من الورد الأحمر والأبيض، ويتبادلون الابتسامات. هل كانوا يسخرون مني، أم أني أتوهم أشياء لا وجود لها؟

هل يمكن أن يكون معالي الوزير شخصيًّا هو الفاعل؟ لكن الوزراء لا يسرقون رواية، أقصد لا يقرؤون الروايات، بل يقرؤون الأشياء الأهم. هل يُعقل أن يكون المدير العام؟ لكنه لا يقرأ سوى التقارير، وآخر شيء يرغب في اقتنائه هو رواية، بل رواية غير مكتملة. ربما يكون «مسعود» استعار المخطوطة ليعيد ترتيب أحداثها كما يحلو له، ويختمها على طريقته الخاصة، ثم يعيدها لي مع رجاء حار بأن أوافق على التعديلات، فهو لصٌ ظريف، لكنه غير مثقف. إذن، إنه «حامد»، ولا أحد سواه. أكيد بعد فترة قصيرة

سأشاهد على رفوف المكتبات روايتي باسم مختلف، وعلى الصفحة الأخيرة صورته «بالصلعة». لكني أستبعد هذا الاحتمال، فحامد شخص لطيف .

في اليوم الأخير، ولأحسم حيرتي، كتبتُ قصة عادية عن مواطن عادي نهايتها تشبه نهايات قصصنا تمامًا. تركتها على الطاولة، وذهبت إلى الشرفة لأدخن سيجارة، كانت الأشجار قبالتي تتمايل مع النسيم، سألتها عن الرواية فتبادلت مع بعضها حديثًا صامتًا. تركتها وعدت، وعند الظهر وقت الانصراف، كان الجميع يرمقني بنظرات غريبة وعيونهم تسألني بعتاب: لماذا تتعمد قهرنا؟ وأنا أسألهم واحدا تلو الآخر: من منكم سرق روايتي؟

حارس العمارة

الطعام موضوع الساعة الأهم خلال شهر رمضان، ويصير حديث الناس وشغلهم الشاغل.

«أبو محمد» واحد من بين ستة عشر جارًا يسكنون في عمارة واحدة، يحلو له التسوق كل يوم بعد صلاة الظهر، يتصل بزوجته من السوق ويسألها: «كم طبخة عاملة عالفطور؟ أجيبلك جاج ولا لحمة؟ رز عادي ولا أمريكي؟ خروب ولا تمر هندي؟ في عنّا خيار وخس؟ قطايف؟ جوز...؟»

في اليوم الأول بعد الإفطار، لاحظ أن العائلة لم تتناول سوى ربع الكمية المعروضة على المائدة، وحتى لا يلوم نفسه، قرر أن يتصدق بما فاض من طعامه لحارس العمارة، وما فعله «أبو محمد» فعله جيرانه الخمسة عشر، بالضبط، وللأسباب نفسها.

في الطابق الأول تحت مستوى الشارع، في شقة ضيقة تفوح منها رائحة الرطوبة، كانت مخصصة لتكون مخزنًا لسكان العمارة، كان «أبو عيسى»، حارس العمارة، قبل ساعة من موعد الإفطار

يساعد زوجته في إعداد وجبتهما الوحيدة؛ هو يفرم البصل، بينما هي تقطع حبات الطماطم، ضمن خطة محكمة لإعداد «قلاية بندورة» بالفلفل الحار.

بعد أن أكلا وحمدا الله وأثنيا عليه، قُرع الباب، وإذا بجارهما «أبو محمد» يناولهما «طنجرة مقلوبة»، قائلا: «أرجو أن تعجبكم، هاي من طبخ أم محمد أعدتها خصيصا لكما».

تناولها «أبو عيسى» بخجل، وشكره كثيرًا، وظل يدعو له حتى غاب عن الأنظار، وبعد دقائق دُقَّ الباب مرة ثانية، كانت «أم سعيد»؛ أعطتهما «صينية دجاج بالبطاطا»، ما زالت تنبعث منها بعض الأبخرة، فيما كررا شكرها وبنفس الأدعية.

خلال ساعة كانت وجبات الطعام تنهال عليهما من كل حدب وصوب: مناسف، محاشي، دوالي، مقالي، صواني، سلطات، حلويات، عصائر...

يبدو أن كلّ جارٍ كان يظن أنه الوحيد الذي فاض لديه بعض الطعام، أو أنهم جميعًا كانوا يظنون أن حارس العمارة قادر على تناول كل هذه الكميات من الأطعمة. وربما أرادوا منه التخلص منها في سلة النفايات فلا تؤنبهم ضمائرهم... المهم أن «أبو عيسى» كان محتارًا ماذا سيفعل أمام هذا الكرم الذي هبط على سكان العمارة فجأة.

في اليوم التالي تكررت العملية، والأكلات المختلفة مع اختلاف مقدميها، وخلال ربع ساعة تكدست على أرضية مطبخهما الصغير أكثر من عشر وجبات.

ابتسم «أبو عيسى» لزوجته وهو يقول: «والله بدنا عشر ثلاجات حتى تستوعب هالكمية. شو رأيك يا أم عيسى، شو نسوي بهالأكل؟ حرام نكبه في الزبالة!» لمعت عينا أم عيسى على الفور، وأشارت عليه أن يتصدق بها بدوره إلى المحتاجين؛ فاستحسن الفكرة، وفي تلك الليلة نام وهو يفكر ويخطط ويحلم بأشياء لم تكن لتخطر على باله.

صار «أبو عيسى» كل يوم، قبل الإفطار بساعة، يُسخّن الوجبات التي تلقاها أمس، ويعيد توضيبها، ويحملها إلى ساحة مفتوحة تقع في آخر الحي مقابل الجامع، وهناك، يفردها على الأرض، ويدعو المارين والمحتاجين لتناولها، بينما زوجته في البيت تستقبل الوجبات التي سيقدمها في اليوم التالي. وهكذا، صار له مائدته المعروفة، وأخذت أعداد الزوار تزداد يومًا بعد يوم، في البداية كان يأكل معهم، ويجاملهم ببعض الكلمات، وهو يوزع ابتساماته على الحضور، ثم امتنع عن ذلك، فصار يقف على مدخل الساحة، يراقبهم وهو يبتسم إلى أن ينتهي الجميع، ويتقبل الدعوات وكلمات الشكر والثناء: «الله يخليك يا شيخ أبو عيسى، الله يزيدك من نعيمه، كثّر الله من أمثالك الخيرين».

قبل نهاية الشهر المبارك بأيام معدودة، كان «أبو عيسى» قد صار من أعلام الحي، وترك لحيته تطول قليلا، وصار يلبس عباءة موشحة بالقصب، يقف كل يوم قبيل المغيب تحت يافطة كبيرة كُتب عليها بخط أنيق: «يدعوكم الحاج أبو عيسى لتناول الإفطار على موائد الرحمن، أهلا وسهلا». كان يصافح المارة مزهوًّا متصنعًا

التواضع، وفي صلاة العيد تقدم الصفوف الأمامية، وصلى خلف الإمام مباشرة، وقد سُرَّ كثيرًا بكلمات المديح التي تلقاها من الخطيب، نظيرَ كرمه وتصدقه على الفقراء.

صار «الحاج أبو عيسى» من شيوخ الإصلاح، لا يتخلف عن جاهة، أو عطوة، يتنقل من دكان إلى دكان، ومن بيت إلى آخر، يسدل عباءته على كتفيه، بينما تتدلى من بين أصابعه مسبحة طويلة، يتفقد لحيته بشكل مستمر، لم يعد يبتسم بلا مناسبة، وصار حديثه مقتضبًا صارمًا، يرد على الأسئلة بكلمات قليلة كما لو أنه يقول رأس الحكمة.

بدأت زوجته تنـزعج من تصرفاته؛ «ليش بطلت تساعدني؟! شو صارلك يا زلمة؟! ولا شي بعجبك، دايمًا ساكت ومنكد!» فيجيبها بعصبية: «شوفي طلبات المساعدة اللي بين إيدي: اللي بدو علاج، واللي بدو توظيف، واللي بدو أتوسطله عشان يطلع جواز، واللي بدها طلاق... والمشكلة في ناس لسه بتعطيني باكيت دخان، أو رطل سكر، أو علبة شوكولاته من أرخص نوع، مفكريني زي زمان، بطّلت أقبل أي طلب بأقل من خمسين دينارْ، وما بضمن أي نتيجة... واللي مش عاجبه في ألف نصاب في البلد غيري».

في السنة التالية هلَّ رمضان في موعده دون تأخير، واحتار سكان العمارة، لمن سيعطون طعامهم، وكيف يتصرفون بما فاض من موائدهم؟ أما «أبو عيسى»، فقد جلس ينتظر وجبة ساخنة دون طائل، بينما زوجته تعد قلاية البندورة كالمعتاد، إلا أنها أعدّتها وحدها هذه المرة...!

في محطة الباصات

وقف أمام المرآة، تأمل هندامه جيدًا، تفقد تسريحته، ثم فتح زجاجة العطر وسكب قطرات منها ثم مسح بيديه خديه ورقبته، حمل حقيبته وخرج من بيته مسرعًا، في العمل كان كل شيء كما تركه بالأمس، تحيّات الصباح، الابتسامات المصطنعة، والمكالمات الهاتفية التي لا تنتهي، والثرثرة مع الزملاء... في طريق عودته عرج على السوق، دخل أول مجمع تجاري، ثم الثاني فالثالث، لم يجد ما كان يبحث عنه، مرَّ قربَ سوق الخضار، لم يشترِ شيئًا... غاص في الزحام...

مئات البشر يمشون من حوله: نساء افترشن الرصيف ليبعن ما جادت به «حواكيرهن»، نعناع، ميرمية، بصل أخضر، فجل... موظفون يحملون على أكتافهم حقائب من الواضح أنها حواسيب محمولة... سائقون يتجادلون مع شرطي المرور بعصبية... طلبة مدارس في طريق عودتهم إلى بيوتهم... باعة يصرخون بأعلى أصواتهم... فتياتٌ متأنقات... عمالٌ هدهم التعب... وجوه متشابهةٌ كثيرة مرت أمامه، لم يلحظ بينها أي اختلاف.

سأل نفسه: ما الذي أبحث عنه؟ لم يجد إجابة... ظل هائمًا على وجهه حتى وصل محطة «الباصات» المركزية. توقف قليلا،

أخرج من جيبه هاتفه الذكي، مد يده اليمنى إلى آخر ما يستطيع، ابتسم لنفسه والتقط صورة سريعة، نظر إليها لبرهة، لم تعجبه، أعاد تصوير نفسه مرة ثانية، ثم دس هاتفه في جيبه وقفل راجعًا.

في المساء تذكر الصور، ففتح هاتفه وقام بنسخ الصور على كمبيوتره، ثم اختار إحداها، كبّرها على الشاشة، تأملها بعناية، هذه المرة ركز على خلفية الصورة... فغر فاه متعجبًا... أين كانت كل هذه التفاصيل؟ كانت تقف خلفه تمامًا طفلة تبدو في عامها العاشر، شعرها فوضوي مغبر، ملابسها خشنة، ترتدي بلوزة أكبر من مقاسها، من الواضح أنها كانت لأختها، كانت تقف بشكل مسرحي، تمد يدها اليمنى بأصابع مفرودة، ويدها اليسرى إلى الخلف، كأنها تؤدي لقطة تمثيلية، ابتسامتها واسعة وصادقة، ينبعث منها فرح طفولي، وقد بدت أسنانها صفراء، وبالقرب منها كان يجلس رجل ستيني، من الواضح أنه والدها، يضع يده أسفل ظهره، من الممكن أنه يعاني من «الديسك»، وفي الزاوية الأخرى ظهرت سيدة ثلاثينية تخفي عينيها وراء كفيها، هل كانت تبكي؟ ربما تلقت للتوّ ورقة طلاقها. وفي آخر الخلفية شابٌّ عشرينيّ يقف متأهبًا، يتأبط جريدةً ويراقب المارة، هل يفتش عن شيء ما؟ هل هو مراقب البلدية، أم متعطل عن العمل؟ ربما كان يغني... هل يا ترى صوته جميل؟ غدًا سأتحقق من الأمر، قال في نفسه.

دفعه فضوله ليتأمل الصورة الثانية، أشياء كثيرة متزاحمة استوعبتها خلفيتها، لكنّ أكثر ما لفت انتباهه طفل لا يظهر منه سوى مؤخرة رأسه وظهره، يرتدي بلوزة زرقاء مخططة، ويحمل في

يده اليمنى سيجارة، وفي اليسرى «باكيت علكة» أو نوعًا من السكاكر، ما أثار اهتمامه أنه يشبه أخاه الصغير، الهيئة نفسها، البلوزة، الطول، حجم الرأس أيضًا.. سرتْ قشعريرةٌ في كامل بدنه، هل حقا هذا أخي؟ على الفور تسلل إلى غرفة أخيه، فتحها بهدوء، أحس أنه يراها للمرّة الأولى، وغرق في صمت مطبق...

في اليوم التالي بعد الظهر عاد إلى ذات المحطة، جال بعينيه يمينا ويسارًا، انتظر بعض الوقت، لم يجد أخاه، ولا من يشبهه، ولا الطفلة، ولا أباها، ولا المطلقة، ولا الشاب المغني... وجد وجوها مختلفة، فوقف في ذات المكان والتقط صورة جديدة.

الغيمة التي أمطرت إسمنتًا

وسط البلد، وتحديدا بجانب «الكازية»، تقع «مكتبة الغد»، صاحبتها سيدةٌ أربعينيةٌ وقورة، تمضي معظم وقتها في المطالعة. كانت، بالإضافة إلى ثقافتها، ماهرة في التسويق؛ فإذا ما سألتها عن أي كتاب في أي موضوع، تنزع نظارتها الطبية عن وجهها، وتبتسم لك بلا تكلف، وتقدم عرضًا موجزًا عنه، ومن النادر أن تذم كتابًا، أو تنتقص من شأن كاتب... هذه المرة أشرتُ إلى كتاب «العبقريات» للعقاد، وهممتُ بأخذه، فاعتذرت لي بأنه محجوز، فسألتها: لمن؟ وسرعان ما برقت عيناها بإجابة جاهزة: إنه لأحمد. ثم استرسلت كما لو أنها تنتظر هذا السؤال: إنه طالبٌ في الصف التاسع، يأتي كل آخر شهر ليشتري كتابًا بعد أن يجمع ثمنه من مصروفه اليومي. قلت لها حسناً، سآتي آخر الشهر لأتعرف عليه، لا أدري هل قلت ذلك بدافع الفضول، أم بدافع الرغبة في مساعدته!

في موعده المحدد دخل من باب المكتبة فتى نحيلٌ، أنيق الهندام، تغطي وجهه ابتسامة خجولة. بدأ بجولة بين الرفوف، وعيناه اللامعتان تتنقلان بين الكتب والعناوين. أخيرًا تناول كتاب

«العبرات» للمنفلوطي، ثم دس يده في جيبه وأخرج ورقة من فئة العشرين شيكلا، ابتسمتُ له، فبادلني الابتسامة بإيماءة التحية، مددت يدي لأصافحه، كانت يداه طريتين، أشبه بغيمة، شددت عليهما قليلا فتساقطت بضع قطرات من الماء.

ناولته «الأجنحة المتكسرة» لجبران، وقلتُ له: أمام كل كتاب تشتريه، سأهديك كتابا آخر، كانت فرحته لا توصف، شعرت أنه يريد الرقص، تبادلنا الحديث والضحكات حتى امتلأت الغرفة بالغيوم، وقبل أن يخرج لمحتُ ساقًا خضراء تنبجس من بين الرفوف.

في الشهر الثاني لم يأتِ أحمد، ثم غاب ثلاثة شهورٍ متتالية، سألته لما عاد بقلق أين كنت؟ وماذا حصل؟ قال بنبرة حزينة: اكتشف أبي مكتبتي الخاصة المؤلفة من عشرين كتابًا، قَدَّر ثمنها بأكثر من أربعمئة شيكل... جُنَّ جنونه... «أربعميت شيكل يا مجرم تشتري فيها كتبْ وأنا بتغطّى ببطانية واحدة مهريّة! من بكره رح تنـزل معي عَ الورشة، ومش حَ استناك حتى تنهي المدرسة...» هذه كانت ردة فعله!

بعد سنتين التقيته في الشارع مصادفة، صافحته بحرارة، كانت يداه خشنتين، وابتسامته مرتبكة، وتعابير وجهه محايدة، وسحابةٌ خفيفة من الضباب تحيط به، سألته عن كتبه، فأجاب أن أباه تدفأ بها يوم الثلجة الكبيرة. ثم مضى في سبيله دون أن يلتفت إلى الوراء، حتى ذاب في الضباب.

قبل يومين انتهى تشرين، في ذلك المساء التقيته مصادفة في «المول»، نزل من سيارته ذات الدفع الرباعي، كان يخفي عينيه

بنظارة سوداء ماركة «ريبان»، تابعتهُ إلى أن جلس في المقهى، صافحني بحيادية، كانت يداه ناعمتين باردتين، وخداه أحمرين مكتنـزين، يتحدث بهاتفه النقال بعصبية، أشار إليَّ بالجلوس، ثم أشار للنادل بطرف إصبعه دون أن يتوقف عن الحديث، تأملته بسرعة، لم أجد حوله أثرا لتلك الغيمة، كانت تنبعث منه رائحة عطر فرنسي نادر، لكني استنشقتُ بدلا منها بعض الغبار. خرجتُ مسرعا فوجدت كل الغيوم قد اختفت من سماء المدينة، ونبتت مكانها غابة أسمنت.

الغرفة

مضى من عمري أكثر من نصفه، على افتراض أني سأموت ميتةً طبيعية، ولا زلتُ أجهل كُـنْه هذا المكان الذي أعيش فيه، حيث أجده في كل مرة مختلفًا؛ رغم أنه مجرد غرفة صغيرة، تحتوي على سرير بجانبه منضدة صغيرة، فوقها صورةٌ لعجوز ثمانيني، تقابلها خزانةٌ بدرفتين، وستارةٌ داكنة تخفي وراءها نافذة كبيرة. تقريبًا تلك هي كل محتويات الغرفة. وهي على بساطتها، تظل محيرة.

أحيانا تبدو غرفة نوم دافئة، يطيب لي النوم فيها حتى ساعات الضحى، وأحيانا تبدو لي مجرد غرفة في فندق درجة ثالثة، آتيها في ساعة متأخرة من الليل، لدرجة أنني لم أفكر في تصليح حنفية المطبخ، ولا حتى إبلاغ موظف الاستقبال عنها. وأحيانا تبدو لي زنزانة موحشة في سجن عسكري شديد الحراسة.

الدكتور «زاهر» كان يؤكد لي أنها غرفة في مستشفى حكومي تستخدم لذوي الأمراض المعدية. لكنني لا أعاني سوى من صداع يأتيني بين الفينة والأخرى وأحيانا أشعر بمغص معوي، فهل الصداع والمغص يستوجبان المكوث في المستشفى سنوات عديدة؟ من المؤكد أنه مستشفى للأمراض العقلية، والدكتور يخفي عني هذه الحقيقة كجزء من العلاج، يا إلهي، «يعني أنا مجنون!»

يظلّ الشرطي «نادر» مبتسمًا على الدوام، رغم أنه يحمل بيده باستمرار «مطرق رمان» رفيعًا وطويلاً، ويلوح به مستمتعًا بصوته الرهيب. أيقظني في الصباح صائحًا بصوته الحاد: «لساتك نايم؟» وعندما سألته أين أنا؟ قال لي: أنت في غرفة توقيف مخصصة لمن تضبطهم الشرطة يقودون سياراتهم سكارى، أو بصحبة غانيات... لكني لا أملك سيارة، ولا حتى رخصة قيادة، ولم أمشِ يومًا مع أنثى غير أمي! هل أنا مجرمٌ خطير والشرطي يخشى مني فاخترع قصة غرفة التوقيف ليلطف عليَّ الأمر؟

كان يدخل الغرفة من حين لآخر أشخاص بلا ملامح، وبلا وجوه، يشبهون أولئك الذين يظهرون فجأة في الأحلام أو في الكوابيس، لا تدري من أين أتوا، ولا كيف اختفوا! أسألهم من أنتم؟ وماذا تريدون؟ ينظرون إليّ بعيونٍ زجاجية، ثم يمضون مخلفين وراءهم بقايا طعامهم وروائحهم الغريبة...

أكثر ما كان يحيرني في الغرفة تلك الصورة الكئيبة، التي قالت أمي عنها: «إنها صورة جد أبيك عندما كان في الجيش العصملي»، هل هذا يفسر تكشيرته الفظيعة؟ الحاجة «أم وفيق»، العجوز الثرثارة، قالت إنها صورة والدك، والدي الذي لم ألتقِه قط؛ حيث قُتل في أول يوم من الحرب، وكنت ما زلت حينها في أحشاء أمي. «أبو حسن» صاحب البقالة الوحيدة في الحي، كان يقول عنه باستمرار «إنه أطيب زبون مرَّ عليه»، وإنه كان كريماً، وصاحب نخوة.

بينما كان يقول عنه «حسّان»، الجار اللدود، إنه كان انطوائيًّا وجبانًا ومعقّدًا. أما الأستاذ «أبو توفيق» فكان يؤكد أن صاحب

الصورة لا يمت إليّ بصلة، وأنها مجرد صورةٍ رسمها مستشرق من خياله، وإذا بحثت في الأحياء المجاورة سأجد الصورة نفسها معلقة على جدران الصالونات، وينسج أهل البيت عنها الحكايات...

مع أني لم أحبّ الصورة، لكنني رفضت أن أصدق رواية الأستاذ «أبو توفيق». لا أدري لمَ تعلقتُ بها، صرت كلما زارنا أحدٌ أحدثه عن صاحب الصورة، وأروي له الحكايات عن بطولاته، والذبائح التي كان ينحرها إكرامًا للضيوف، وإذا وجدت تفاعلاً من المستمع أشير إليها: أنظر، ألا ترى الشبه بين عينيه وعينيّ؟ ذات مرة قررت التخلص منها، فوجدت الحائط عاريًا قبيحًا، فأعدتها على الفور. وعندما حصلت على «تأشيرة» للهجرة إلى كندا، كانت أول شيء أضعه في الحقيبة.

لكنْ، غرفتي والصورة، وحيرتي معهما، وكل ما قيل عنهما من قصص، كومة، والغرفة المجاورة لي كومة أخرى مختلفة... فهي على درجة من الغرابة تستعصي على الفهم. دوما مقفلة، أسمع منها بين الحين والآخر دوي انفجارات، من المفترض أنها كفيلة بهدم الغرفة، بل والعمارة كلها، ومع ذلك لم تتصدع جدرانها. في العصارى أشتم رائحة حشيشٍ تتسلل من تحت الباب، تختلط مع روائح عطور فاخرة، وأحيانًا مع رائحة مياه آسنة وعفونة.

في المساء أسمع تراتيل وأناشيد دينية تتداخل مع صوت أم كلثوم، وموسيقى غربية صاخبة، وضجيج سيارات، وهدير جنازير الدبابات، وأصوات طلقات متقطعة وسريعة، وبكاء أطفال، وعويل نساء، وتأوهات مومسات يطارحن الغرام، وضحكات مدوية... يا إلهي، كيف تتسع هذه الغرفة لكل تلك المتناقضات!

من ثقب الباب راقبت الغرفة طويلا، لأعرف من يدخلها ومن يخرج منها، لعلّي أفهم شيئًا مما يجري هناك. دخلها شيخٌ ملتحٍ يرتدي دشداشةً قصيرة، تبعه رجلٌ أربعينيّ أجنبيّ الملامح، يحمل حقيبة «سمسونايت»، ثم رجلٌ أشعث أغبر يبدو أنه لم يستحم منذ الثورة العربية الكبرى، وشاب «منكوش» الشعر يرتدي «بنطلون جينز» يشبه الفنانين غريبي الأطوار، وآخرون يبدو عليهم الهزال من شدة الجوع، وفتيانٌ يحملون بنادق رشاشة. لكني لاحظت أنه لم يخرج من الغرفة أحد!

فكرتُ أكثر من مرة أن أدخل الغرفة المجاورة لأعرف حقيقتها، لكني كنت أتراجع، كيف سأفهمها من مجرد إطلالة سريعة، وأنا لم أفهم غرفتي التي أسكنها؟ أخيرًا دفعني الفضول لأفتح الباب. رأيت عشرات الأشخاص يتقاتلون فيما بينهم. أشلاءٌ وجثث ممدّدة على الأرض، وجوهٌ مكفهرة وأخرى مكتنزة تشوبها حمرةٌ، وتبدو عليها آثار النعمة. ولشدة دهشتي رأيت صورة جدي، أو أبي، الصورة نفسها تقريبًا، منسوخة عشرات المرات، ومعلقة على كل الجدران. الاختلافات طفيفةٌ بين نسخة وأخرى، اللحية أطول أو أقصر، لون الشعر أغمق أو أفتح، حجم الأنف، لون الياقة... لكنها تحمل العيون والتكشيرة الفظيعة ذاتها!

لم أتمالك أعصابي، أمسكتُ بياقته وشددتها نحوي، وصحتُ بأعلى صوتي: من أنت بحق الجحيم، من أنت بحق الجحيم؟

حقيبة مدرسية

لا شيء يؤثّر على الأب أكثر من ابنته الصغيرة: طلباتها، دموعها، ضحكتها، ترقّبها له عند مدخل البيت وعيونها على ما يحمل في يديه .. «فدوى» .. طفلة مشاكسة، ستكمل عامها السادس بعد شهرين، ولكنها بحاجة عاجلة لحقيبة مدرسية، لأن غدا سيكون أول يوم لها في المدرسة، اشترت لها أمها الدفاتر والأقلام من بقالة أبو محمد التي تبيع كل شيء إلا الحقائب .. «فدوى» لها ألف طريق إلى قلب والديها، ونادرا ما يُرفض لها طلب، لذا قرر أبوها أن يخترق الحصار الذي يفرضه جيش الاحتلال على القرية، وأن يتوجه عبر الجبال إلى نابلس، كانت حقول الزيتون في الجهة الغربية من بورين هي المنفذ الوحيد الذي يمكن أن يوصله هناك، فسلك الطريق الوعر منذ الصباح الباكر، وبصعوبة بالغة استطاع الوصول.. اشترى حقيبة زهرية اللون، تزينها صورة الأميرات الثلاث، وعلبة ألوان خشبية، ومطرة ماء.

علم من الناس أن الجيش زاد من تشديده إغلاق كل المنافذ والطرق، وحتى الطرق الالتفافية والممرات الجبلية، فقرر أن يمضي

سحابة اليوم على المقهى، وفي زيارة بعض الأصدقاء إلى أن يهبط الليل؛ ليعود تحت جنح الظلام.

في المساء عاد من نفس الطريق، كان وحيدا، خائفا، يتنقل بين الأشجار على مهل، من بعيد لمح بضعة جنود يكمنون بانتظار صيد ما، كان يسمعهم يتجادلون وأحيانا يضحكون بصوت مرتفع، ظل مكانه ينتظر رحيلهم، قبل أن ينتصف الليل بقليل لم يعد يسمع شيئا، ساد صمت ثقيل، انتظر بعض الوقت ثم انطلق من مخبئه، مشى بضعة خطوات فقط قبل أن يسمع رشق رصاصات مزق صوتها السكون، إحداها استقرت في خاصرته اليمنى، في البداية كانت تشبه اللسعة، غطى الجرح بكفه، وانبطح أرضا، وسرعان ما اشتد به الألم، لكنه كتم صرخاته، وظل جرحه ينـزف بغزارة، وقواه تخور، وحرارته تنخفض .. أحسَّ بخوفٍ شديد، احتضن الحقيبة بقوة، حاول أن يبعدها عن مجرى الدم، لتظل نظيفة زهرية، شعر بدوار خفيف ثم أغمض عينيه على صورة فدوى وهي تسأله بلهفة: ما الذي أخّرك يا بابا .. نحن بانتظارك .. نحن قلقون ..

في الصباح كان الأهالي يتناقلون خبر العثور على جثة رجل مجهول يحضن حقيبة أطفال.

خمس دقائق فقط

كان عمرها ثلاث سنوات عندما اقتحمت قوة احتلالية مدججة بالسلاح منـزلها الصغير في مدينة الخليل، ولم تفهم حينها من هؤلاء الدخلاء ؟ ولماذا يطرقون الباب بكل عنف في آخر الليل؟ ولماذا اقتادوا أباها معصَّب العينين ؟ وإلى أين سيأخذونه !!

كبرت «عبير» قليلا.. ودخلت المدرسة.. صارت تسمع أقرانها الصغار يتحدثون عن آبائهم، ويتباهون بهدايا العيد، وأن سَحَر ساعدها والدها بحلِّ واجباتها، وإيمان طلبتْ من أبيها غيتاراً يعمل بالبطارية، أما علياء فقد وبخها أبوها لأنها صعدت على كتفه وهو يغالب النعاس.. عادت للبيت مثقلة بالأسئلة، أطلقتها بوجه أمها دفعة واحدة.. ولم تتلق سوى دموعها ونحيبها .. قالت لها بتصميم: أريد أبي هذا المساء.. أريده بشدة.. حتى لو صرخ بوجهي سأصعد على كتفيه ..

كبرتْ سنة أخرى، وعرفتْ أن والدها محكوم بأربعة مؤبدات .. سألتْ جدها .. كم يوما تساوي أربعة مؤبدات ؟؟ ومن هؤلاء الأوغاد الذين سيحبسونه كل هذه الساعات الطوال ؟! قضمت سنة أخرى من الأسئلة دون أن تجد إجابة ..

في العطلة الصيفية اصطحبتها أمها إلى سجن النقب؛ أربعة ساعات في الطريق، ساعتين عند مدخل السجن، وساعة أخرى للتفتيش، وأخيرا حظيت بخمس دقائق كاملة لترى أباها؛ وقفت أمامه بذهول ..

هل هذا هو أبي ؟؟ آه ما أجملك .. خذني عندك .. ضمني بين جناحيك.. قبّلني.. كانت عيناها تقول ذلك، وهي تفيض بالرجاء.. أما هو فكان قلبه يتقطع .. ويؤجل دموعه إلى المساء ..

اعتادت زيارته كل شهر .. وفي كل مرة تتعلق به أكثر .. يراها تكبر .. وتراه يهرم .. والوقت يسرقهما معا ..

في ذهابها ترى صحراء النقب تحف بها الأشجار، وهي تقفز فوقها كالعصافير .. وحين تتعب تحط في حضن أبيها .. أما في عودتها فلا ترى إلا الرمال الكئيبة .. والريح الصفراء .. وسؤال ينشر حروفه على طول الطريق: (لماذا لا يَدَعونني أعانق أبي ؟!) وعندما تأوي لفراشها تجد السؤال مختبئا تحت اللحاف .. تنام من التعب، وفي الصباح ينسل السؤال من تحت الباب ليوقظها، تنهض حائرة، وفي الصف تفتح كتاب الجغرافيا فترى نفس السؤال يتكرر في كل الصفحات، تصل بيتها والسؤال ما زال يدلف من حقيبتها المثقوبة.

ظل السؤال يطاردها أينما ذهبت .. يحيّرها، ويدفعها نحو الصمت، حتى صار صمتها بلا نهاية .. عيناها شاردتان حزينتان .. تنـزفان دمعا ساخنا .. هل الشوق يؤلم إلى هذا الحد؟ لا أحد يعرف الإجابة إلا عبير وأهلها ..

تقدم أهلها بطلب من إدارة السجن للسماح لها بالدخول عند أبيها خمس دقائق فقط؛ لتعانقه وتقبّله .. لتلمس يديه وتحس بأبوّته.. أجاب آمر السجن ببرود: «يوسف السكافي» مخرب وإرهابي .

اشتكوا للصليب الأحمر وللمنظمات الدولية ولمحامين عرب وإسرائيليين وأعضاء كنيست.. ولكن الطلب كان يُرفض المرة تلو المرة.

في آخرة زيارة، كانت رغبتها بعناق أبيها جامحة .. وقفت أمام اللوح الزجاجي الذي يفصلها عن بعضها وطرقته بقوة، ألقت بسماعة الإنتركم على الأرض، صرخت بشكل هستيري، بكت بحرقة .. هذه المرة كان وقْع السؤال عليها قاسياً، لم تستوعبه، لم تقبل أي إجابة .. أحسَّت أن الهواء ثقيلٌ ويطبق على صدرها، وأن هذا العالم كله ظالم، وبلا قلب، ولا يعرف الرحمة ولا العدالة ..

سألتها معلمة الحساب لماذا نسيتِ جدول الضرب يا عبير ؟ سألتها سعاد لماذا نسيتِ عيد ميلادي العاشر ؟ سألها جدها لماذا نسيتِ مواقيت النوم والإفطار؟! سألتها أمها لماذا نسيتِ قلبكِ في النقب ؟ كان جوابها واحدا: بعد أن عرفتُ أني لن أعيش أربعة مؤبدات؛ لم أعد أذكر شيئا ..

تدهورت صحتها، وساءت أحوالها، فقدت قدرتها على الإمساك بأي شيء، تم نقلها لمستشفيات الأردن، ولكن بلا جدوى.. وأخيرا .. وفي شهر نيسان، بينما كانت الأرض تنبت بالأقحوان، والأشجار تزهو بنوّارها .. كانت عبير قد دخلت في غيبوبة .. كان جسدها يرتجف .. ويداها تلفان على خصرها بقوة كأنما تحضن نفسها .. ونفس السؤال يعذبها، وبعد ثلاثة أيام .. أيقنت أن هذا

العالم بأسره متواطئ وعاجزٌ عن منحها خمس دقائق فقط .. فأرسلت لأبيها قبلة .. ثم أغمضت عينيها على حلم جميل .. وأسلمت الروح لبارئها ..

عاشت عبير أحد عشر عاما بأمنية واحدة .. خمس دقائق فقط.. ماتت عبير ولم تحقق أمنيتها ..

بقالة تشرين

«أبو محمد»، أستاذ لغة عربية، في أوائل الأربعينات من عمره، هو في الأصل من قرى غرب رام الله، لكنه كان يقطن في «عين مصباح»، كان مهووسا بالسياسة، وليس له من حديث سواها، وما يساعده على ذلك تمكنه من اللغة. كانت لديه بقالة في شارع النهضة، مقابل مغفر الشرطة القديم (الذي تم قصفه في بداية الانتفاضة)، أسفل فندق الوحدة، بقالة بسيطة، يقضي فيها بقية نهاره بعد فراغه من المدرسة، يبيع المرطبات والألبان والمكسرات، وبعض أنواع الساندويتشات، ويستمع من جهاز الراديو الترانزيزستر لإذاعة صوت العرب.

بعد حرب تشرين 1973، كان منتشيا بطريقة غير عادية؛ فقدّم لزبائنه عروض تخفيضات غير مسبوقة، بمناسبة «العبور»، و«انتصارات تشرين» ... حتى أنه قرر تغيير اسم بقالته، لتصبح «بقالة تشرين» ..

بعد يومين بالضبط من تغيير الاسم، جاءه الكابتن «شلومو»، ودار بينهما الحوار التالي:

– مرحبا أبو محمد.

– أهلين خواجا.

– اعملي لو سمحت ساندويتش لبنة مع مرتديلا، وما تنسى تحط المخلل، وقنينة سفن أب.

يجلس الكابتن «شلومو»، ويقلب المحل بناظريه، ويتأمل وجه «أبو محمد» بهدوء مصطنع، قائلا:

– احكيلي أبو محمد، إنتَ ليش سميت محلك بقالة تشرين ؟!

– والله، يا كابتن، مثل ما بتعرف، تشرين أحلى شهر بالسنة، بتسقط فيه أوراق الأشجار، وبكون بداية للتغيير .. وأنا حبيت أكرم هالشهر بطريقتي ..

يجيب «شلومو» كاتماً غيظه: طيب، شو أشياء ثانية كمان بتسقط في هالشهر، غير أوراق الشجر ؟!! يا أستاذ أبو محمد ؟!!

– سلامتك ..

– قل لي، أبو محمد، إنتَ ليش ما عندك تلفون ؟!

– والله يا خواجا، قدّمت طلب تلفون قبل أربع سنين، وبدي كمان عشرة سنين حتى أحصل على دور ..

– طيب، أنا بِدّي أساعدك، بكره بكون عندك تلفون، بس بشرط تكتب الرقم بجانب اسم البقالة .

– بكون ممنون، بس معقول بهالسرعة، وبهالبساطة !!!

يخرج «شلومو» وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة.

وبالفعل في اليوم التالي كان عمّال البريد يوصلون الأسلاك لتلفون «أبو محمد» الجديد، بينما الخطاط يصحّح يافطة المحل، مضيفا الرقم، لتصبح: بقالة تشرين – هاتف رقم 1967. (الأرقام في حينها كانت من أربعة خانات فقط).

حاول «أبو محمد» أن يبتلع الإهانة، وأن يصبر على تعليقات الناس الساخرة والمؤنبة .. لكنه لم يستطع، فقبل أقل من أسبوع كان قد أغلق محله نهائيا، وألقى باليافطة في الحاوية، وانزوى على نفسه، ودخل في حالة من القنوط والعزلة .. وكان عليه أن ينتظر ثلاثين سنة أخرى، إلى أن اجتاح الجيش الإسرائيلي مخيم جنين في نيسان 2002، حيث هناك تمرغت كرامته بالوحل.

بعدها مباشرة، قرر أبو محمد أن يفتتح لابنه بقالة في شارع «ركب»، وأن يكتب على اليافطة: بقالة نيسان – هاتف 1965. وأن يجلس مزهواً، منتظراً قدوم أي كابتن، ليشتري من عنده ساندويتش مارتديلا.

أين اختفى أبو العبد !؟

قبل نحو سنتين، وبشكل مفاجئ، عادت قصة اختفاء «أبو العبد» تتصدر واجهة الأحداث، ومع كثرة الشائعات التي قيلت حولها آنذاك، بدأ يتلاشى وهجها تدريجيا، إلى أن توقفت. اليوم، وبشكل مريب، لا أحد يتكلم عن الموضوع، وكأنَّ هناك اتفاقاً تآمرياً فيما بين وسائل الإعلام على تجاهل القصة، والتعتيم عليها، بعد أن ظلت لسنوات طويلة وهي القضية الأكثر إثارة، والأشد غموضا وغرابة، وقد عجزت عن فك لغزها كافة أجهزة المخابرات ومعها المحللون والمتابعون .. وحتى قُرّاء الكف والطالع ..

وللتذكير، «أبو العبد» هو الاسم الحركي لفدائي فلسطيني وُلد في بداية الخمسينات من القرن الماضي، كانت لهجته تدل على أنه من يافا، أو من إحدى قراها، (فقد كان يتقن اللجهتين الفلاحية والمدنية بطلاقة)، طوله بحدود ال 180 سم، حنطي البشرة، مشدود القوام، عينيه بين البني والعسلي، ولكن الطيبة والبساطة والذكاء تشع منهما، اسمه الحقيقي غير معروف إلا لأشخاص قليلين جدا، وأكثرهم غادر الدنيا، ومن بقي فيها فهو مجهول الإقامة.

قصته الحقيقية والكاملة لا أحد يعلمها بالضبط، فحتى الذين كانوا يعرفونه شخصيا، ويتواصلون معه كانوا يعرفون جانبا منها فقط، ويجهلون جوانب أخرى. وهناك ما يشبه التأكيد على أنه انضم إلى صفوف الثورة في نهاية الستينات (توجد صورة لهويته العسكرية شاهدتها أثناء بحثي في جريدة العاصفة من أرشيف مكتبة الجامعة الأردنية)، البعض قال إنه بدأ بنشاطه العسكري والتنظيمي قبل ذلك بكثير، ولكن لصغر سنه كان تُوكَل إليه مهمات بسيطة، لكنها تتطلب قدراً كبيراً من الشجاعة.

ولأنه كان كتوما وحذرا، لم يكن أحد من أقربائه وجيرانه يعرف حقيقته، وحتى رفاقه الذين ناضلوا معه لسنوات طويلة، كانوا يتعاملون معه على أنه مجرد مقاتل عادي، دون أن يعرفوا أنهم لم يروا منه سوى قمة «جبل الجليد» الذي يختفي معظمه في قاع البحر، ولشدة ما كانوا يستغربون حين يسمعون عنه قصص البطولات، فلا يصدقونها. وفيما بعد، وبعد أن ذاع صيته، أخذ عدد كبير من القادة والشبان يسمون أنفسهم «أبو العبد»، منهم تيمّناً بالاسم، ومنهم ليدّعي أنه هو نفسه «أبو العبد»، أو لينال بعض الاحترام الذي يحظى به الاسم. أما رجال الأمن وأجهزة الاستخبارات، والإعلاميين والمختصين فكان لهم قول مختلف؛ فقد كانوا يتربصون به ويتابعون آثاره، ولكن بلا جدوى. حتى أن ضابط المخابرات سألني أثناء التحقيق معي قبيل ترحيلي إلى سجن سواقة، عن طبيعة علاقتي مع «أبو العبد»، فأجبته بابتسامه ساخرة، لأني فعلا لم أكن أعرفه، لكن هذه الابتسامة الساخرة كلفتني ثماني صفعات على خدٍ واحد.

يقال أنه من بين الجرحى الذين أصيبوا في معركة الكرامة، وقد تعالج في مستشفى السلط، وحين جاء ضابط الاستخبارات ليحقق معه، أقنعه أنه مجرد راعٍ كان مارّاً بالصدفة بالقرب من المعركة.. بعدها، أمضى في عمّان عامين فقط، ثم التحق بمعسكر الهامة في سورية، ومن بعدها انتقل إلى العرقوب في الجنوب اللبناني، في تلك الفترة انضم لكتيبة الجرمق، وكان ثلاثة أشخاص فقط يعرفونه باسمه الحقيقي (وهم: معين الطاهر وهو الآن من قدامى المحاربين ومقيم في عمّان، شفيق الغبرا، وهو الآن أستاذ جامعي في الكويت، محمود العالول وهو اليوم من قيادات السلطة ومقيم في نابلس). وقد استمر وجوده في الجنوب إلى أن حل صيف العام 1975، حيث اشتدت الحرب الأهلية اللبنانية، فعاد إلى الأرض المحتلة.

بعد عودته اعتقلته سلطات الاحتلال أربع أو خمس مرات، في كل مرة كان يُقنع المحققين بأنه مواطن بسيط، ولا علاقة له بالعمليات الفدائية، حيث كانت مخابرات «الشين بيت» تعتقد بوجود رابط خفي بينه وبينها، لكنها لم تمتلك أي دليل يؤكد شكوكها، ومع هدوئة الاستفزازي أمام المحققين، كانت المحكمة العسكرية تكتفي بحبسه «إداري» ثم تفرج عنه، وتضعه تحت المراقبة، وبعد مرور بعض الوقت تتكرر العمليات، ويتجدد اعتقاد المخابرات بوجود الصلة الخفية بينه وبينها، ثم تعتقله من جديد، وهكذا .. وبالرغم من تنفيذ 86 عملية فدائية ما بين تفجير وقنص وهجوم مسلح، جميعها قيدت ضد مجهول، في الفترة ما بين عودة «أبو العبد» ولغاية 1981، إلا أن المخابرات ظلت عاجزة عن إدانته، فقررت أخيرا إبعاده من دون إبداء أسباب إلى الأردن.

لم يمكث «أبو العبد» في الأردن سوى ليلتين، وفي اليوم الثالث تسلل إلى سوريا، ومنها إلى لبنان، وهناك التقى من جديد مع «خليل الوزير»، لم يمض وقت طويل حتى اجتاح الجيش الإسرائيلي لبنان في صيف 1982، فشارك في معركة صمود بيروت، ولكنه قبل أن يُعلَن عن وقف إطلاق النار بيومين اختفى تماما، إلا أنه شوهد مرة ثانية في مخيم البداوي، وفي طرابلس في خريف 1983.

بعد الخروج من طرابلس، اختفت آثاره كلياً، افتقده أصحابه ورفاقه، وحتى عائلته لم تعد تعرف عنه شيئا، وقيل حينها أنه غرق في البحر قبالة شواطئ قبرص، وقيل أنه مات في معسكر السارة في الصحراء الكبرى جنوب ليبيا، وقيل أنه اعتقل في سجن «صيديانا» في سورية وقضى تحت التعذيب، وقيل أنه يعيش حياة هادئة في حي الرابية في عمّان، وأنه اعتزل السياسة ...

هناك روايات بأنه تزوج، وأنجب بنتين جميلتين، وقد التحقتا بفرقة الحنونة للفنون الشعبية، بينما يؤكد آخرون أنه لم يتزوج أبداً، لأن التي أحبها وأحبته ظلت بعيدة المنال، وقد رفضت كل عروض الزواج من غيره، وتحملت ضغوطات الأهل، وظلت تنتظره، وهو يتنقل من سجن إلى منفى، إلى أن فاتها القطار، لكنه تضامنا معها أحجم عن الزواج.

وفي مقابلة مسجلة أجريتها مع أحد القلة الذين يعرفونه، أكد لي أنه أمضى الفترة من 1983، وحتى قدوم السلطة الوطنية متنقلا ما بين الخليل ونابلس ورام الله وغزة، وأنه كان من القيادة الوطنية

الموحدة للانتفاضة الأولى، وكانت علاقته المباشرة مع المرحوم «فيصل الحسيني»، ومن خلاله مع مكتب الغربي في بغداد.

وطوال هذه الفترة، لم يعرف أحدٌ مكانه، في طول الأرض المحتلّة وعرضها، حتى مكتب الغربي في تونس وبغداد كان يعرفه فقط بالاسم، ويتواصل معه عبر شخص واحد فقط كان موضع ثقة الطرفين، وقد حاولت إسرائيل بكل أجهزتها تتبع مكانه ونشاطاته، لكنها لم تجد له أثرا.

في كانون الأول من العام 1995، كان «ياسر عرفات» في رام الله لأول مرة منذ نحو ثلاثين عاما، في المساء كانت الجماهير الغفيرة تؤم المقاطعة، يصافحون الزعيم ويقبلونه، ثم يمضون، كان من بينهم «أبو العبد»، لم يكن أحد من الحراس والمرافقين ولا من القيادات تعرفه، ولا حتى «أبو عمّار»، لكنه حين صافحه همس في أذنه بكلمات قليلة، حينها بدت معالم الجدية على قسمات أبي عمار، على الفور، أعاد احتضانه، وقبّلَه بحرارة فيها قدر من المبالغة، وقال له بصوت خافض، لا تغادر، عاوزك.

وبالفعل بعد منتصف الليل، كان «أبو العبد» و«أبو عمار» في غرفة مغلقة وحدهما في اجتماع استمر لأكثر من ساعتين، لم يعرف أحد ماذا دار خلاله، وعلى ماذا اتفقا، بل أن أحدا لم يعرف من هذا الرجل الذي استحوذ على اهتمام عرفات، وطلب منه أن يعود في اليوم التالي.

في اليوم التالي عاد إلى المقاطعة، لكن عرفات كان قد توجه إلى أريحا، فلحق به هناك، بيد أن بعض المحيطين به أعطوا تعليمات

للحراس بأن «أبو عمّار» مشغول، ولا يريد مقابلة أحد هذا المساء، وفي اليوم التالي عاد، وعلى مدى أسبوع تكرر نفس السيناريو، ثم انتقل «عرفات» إلى غزة وأمضى فيها فترة طويلة، ومنذ ذلك التاريخ قرر أبو العبد الاعتكاف، والانزواء .. فاختفى كليا، وكل محاولات القيادة للعثور عليه باءت بالفشل .. وبعد رحيل «عرفات»، لم يعد أحد يفكر جديا بالبحث عنه.

ولغاية هذا اليوم، لم يعرف أحد أبدا، في سائر أرجاء الكوكب: في أية غرفة مغلقة ينام «أبو العبد». ومتى سيعود ؟ وهل ما زال بحيويته ونشاطه، أم هزمته السنون ؟

ولم يعرف أحد أبداً كيف اختفى فدائي أسمر إسمه أبو العبد.. وصار كما لو أنه مجرد ذكرى جميلة، ولكن، في جنازة الشهيد «زياد أبو عين»، شاهدتُ الفدائي القديم الذي عايش «أبو العبد»، وكان حلقة الوصل بينه وبين القيادة، كان يرفع يافطة عليها علم فلسطين من اليمين وشعار العاصفة من اليسار، وفي الوسط عبارة واحدة: إرجع، يا فدائي، اشتقنالك ..

الخفاش

عادت بعد يومين، وقفتْ أمامه صامتة، تطالع عناوين الصحف، لم يتردد هذه المرة، فقال لها بنبرة خجولة: اليوم في أخبار كثير مهمة في الجريدة، وفي صفحة كاملة عن الصحة والجمال .. ابتسمت، وقالت كيف عرفت اهتمامي بهذه الأشياء ؟! فقال لها: ألمس في صوتك حزنا دافئا، وأنت تحاولين أن تبرئي من جرح جديد. قالت بصوت حاسم: من أنت بحق السماء ؟ فأجابها بابتسامة هادئة؛ كانت كافية لبدء علاقة من نوع غامض بينهما، لكنها ستحدث تغييرا هائلا في حياته.

اسمه «طلال»، لكن أحداً لم ينادِه بهذا الاسم منذ زمن بعيد، حتى أنه كاد ينساه، كهل في نهاية الأربعينات، وُلد ضريرا، أي أنه لم يبصر النور قط، ولأنه منذ صغره كان يمشي بخفة ومهارة، فقد ظن الناس أنه مثل الخفاش، يرسل ذبذباته الخفيّـة لتقدّر بُعد الأجسام عنه، فلا يصطدم بها، وهكذا أطلقوا عليه اسم «الخفاش».

وفي حقيقة الأمر، لا يعرف أحد على وجه الدقة كيف طور «الخفاش» بقية حواسه، لتعوضه فقْدَ عينيه، وكيف بمقدوره تخيل

أشياء لم يرها أبدا، ولم تشكل جزء من ذاكرته، كيف يميز اللون البرتقالي عن الأخضر، مثلاً !؟ أو كيف يتصور الظلال، النجوم، الغيوم !؟ ماذا يرى في الأحلام ؟! ومع ذلك كان يؤكد لكل من يسأله أن بإمكانه وصف أي شيء بدقة، إلا التلفزيون !! كان يجد صعوبة في تخيله، وكيف يحشر الناس بداخله ؟ ثم يخرجهم بصورهم وأجسامهم وأصواتهم وحركاتهم !!

درَّبه أبوه، الذي أورثه العمى، على التكيف مع واقعه المفروض عليه، وعلى تجاوز الإعاقة، بل والتغلب عليها، لكن أباه مات قبل أن يتم العاشرة من عمره، ثم تبعته أمه، التي لم يطق قلبها تحمل المزيد من الخسائر والآلام، فرحلت وفي قلبها حسرة، بعد أقل من عامين، ليجد «الخفاش» نفسه وحيدا، في هذه الدنيا الواسعة، مكشوفا تماما بلا أي سند، مثل شتلة برية نبتت وحدها وسط الصحراء، تنتظر عاصفة.

ليس أول شخص يولد كفيفاً، لكن الكفيفين الذين تميزوا بعبقرياتهم ربما وجدوا من يدعمهم؛ أما هو فقد نشأ فقيراً، لم يدخل أي مدرسة، لم يسجل في أي نادٍ، لم ترعَه أي جمعية .. باختصار شديد، لم يحفل به أحد ..

كان أهل قريته يحسنون إليه، يعطونه ما فاض من موائدهم، يمنحونه بين الحين والآخر بعض الشواقل، أو ما صغر على أولادهم من ملابس، لكن هذا لم يكن يتم بصورة دائمة ومنتظمة؛ فكثيرا ما نام جائعا، يرتجف من البرد، تقتله الوحدة بلا أنيسٍ يسامره أو صديقٍ يضحك معه.. القرية رغم طيبتها، إلا أنها كانت

تذكّره دوماً بقسوة الحياة، ناسُها البسطاء لم يكونوا مؤهلين لتبنّي حالة صعبة مثل حالته .. فقرر الرحيل إلى المدينة .. هناك على الأقل قد يجد عملا، يشغل فيه وقته، يؤمِّن له عشاءه كل ليلة، ويضمن له فراشا دافئا .. ولعلَّ أصوات السيارات وضجيج المدينة وإيقاعها السريع تملأ كل هذا الصمت القاتل من حوله ..

كان في الخامسة عشرة من عمره حين دخل نابلس لأول مرة، ليسكن فيها بقية عمره، لم يكن يعلم أنه سيودع طفولته مرة أخيرة، وسيترك خلفه رتابة القرية وطمأنينتها إلى الأبد، وسيستبدل هدأة الليل بقلق الحياة، وأن عليه بدلاً من حِفظ شارعين وبضعة أزقة، حفظُ أسماء عشرات الشوارع وأطوالها، وتفرعاتها، ومطباتها، ومئات الأزقة والحواري، وآلاف الأصوات، وأسماء المحلات، وأنه بدلا من انتظار عطف الجيران، سيكون عليه الطواف بشوارع المدينة من الصبح حتى المساء، في حر الصيف وبرد الشتاء، حتى لا يبيت جائعا ..

الله وحده يعلم كم ليلة بات فيها على الرصيف، وفي الحدائق العامة، مكوَّماً حول جسده الهزيل، مثل قطط الشوارع، تغطيه ثيابٌ رثة، قبل أن تشفق عليه سيدة مسنّة، لتسكنه في غرفة صغيرة ملحقة بفناء دارها الواسع، أشبه بمخزن أو قبو، تفوح منها رائحة الرطوبة؛ لكنها على أية حال توفر له سقفا يحميه من هول المطر، وجدرانا تقيه غضبة الريح، وباباً يمنحه الأمل بأن يطرقه شخص ما ذات يوم.

على مدى أشهر، جالَ شوارع المدينة مئات المرات، بحثاً عن أي فرصة عمل، كان يلح بالسؤال، ويستعرض مهاراته التي تعوضه فقْد بصره، ولكن دون جدوى؛ من كان يسألهم كانوا

يمنحونه بضعة شواقل، أو دعاء بالتوفيق، أو ابتسامة ساخرة .. إلى أن عرض عليه الحاج «أبو بسام» صاحب مكتبة العروبة أن يبيع له الجرائد، مقابل نسبة معينة على كل نسخة يبيعها ..

كانت سعادته لا توصف بوظيفته الجديدة، وقد أحس أنه وُلد من جديد، بل وأنه لأول مرة يتذوق طعم الحياة؛ فصار يصحو قبل شروق الشمس، يملأ صدره بالهواء، والتفاؤل، ثم يسلك طريقه مباشرة إلى المكتبة، يمشي وعلى محياه أثر ابتسامة، وهو يردد صدى أغنيات بعيدة، يتناول ربطة الجرائد، ويبدأ بالتجوال .. ومع مرور الوقت صار له برنامجٌ معين، يبدأه بتوزيع الجرائد على زبائنه المعروفين، فيضع لهم نسختهم تحت باب المحل قبل أن يأتوا، ثم يقف على الدوار نصف ساعة، ثم يدخل البلدة القديمة فيذرعها جيئةً وذهابا، ثم يصعد حافلة رفيديا، ليقف قبالة بوابة جامعة النجاح حتى ينتصف النهار، فيعود لوسط البلد وقد أنهى مهمته تقريبا، وبين الحين والآخر كان يتجه صوب مخيمي بلاطة وعسكر، بل ويواصل مسيره حتى كفر قلّيل وآخر شارع القدس، إلا أنه توقف عن ذلك، وصار يكتفي بشارع فيصل حتى بداية شارع عمّان، في بعض الأيام يبيع كل نسخه، وفي أيام أخرى لا يبيع سوى أقل من النصف، ومع الخبرة صار يربط بين بضاعته وبين طبيعة الأخبار في ذلك اليوم؛ الأمر الذي تطلب منه الترويج للجريدة ليس فقط بقوله: جرايد جرايد .. قدس، أيام، حياة .. بل عليه أن يختار أهم الأخبار وأكثرها إثارة وتشويقاً، ليرددها على مسامع الناس، حتى يحثهم على الشراء.

لم يكن «الخفاش» يعرف القراءة، فكان عليه أن يطلب من الناس قراءة العناوين الرئيسية ليحفظها ويرددها، لكن المشكلة أنه في الصباح الباكر قلّما يجد أحد المارة، وإذا مرَّوا كانوا مستعجلين. وإذا صادف أحدهم فإنه يختار فقط ما يروق له من أخبار، وقد اكتشف مع الوقت أنهم إما انتقائيون، أو كذابون .. صاحب «المول» كان يقرأ له الخبر الرئيس: «أنباء عن عاصفة ثلجية ستجتاح المدينة هذا المساء»، (فيعرف أنه ينتظر طوابير المستهلكين)، وآخر يقرأ له: «اللجنة المركزية للحزب تدعوكم للمشاركة في المسيرة الجماهيرية الحاشدة»، (فيعرف أنه يساري)، وآخر يقرأ له: «جحافل المجاهدين تدمر رتلا عسكريا لجيش النظام»، (فيعرف أنه إسلامي يميني)، وآخر يقرأ له: «حالة الاستقرار والأمن تجلب مزيدا من الاستثمارات للبلد»، (فيعرف أنه سمسار)، وآخر يقرأ له: «القبض على خلية إرهابية»، (فيعرف أنه من السلطة)، أو سيدة تقرأ له: «دراسة تثبت أن نصف الرجال مصابون بالضعف الجنسي، والنصف الآخر يكذبون»، (فيعرف أنها عاشقة مكسورة الخاطر) ..

– من وين جايب هالأخبار يا خفاش !؟ فلّيت الجريدة من الجلدة للجلدة، وما لقيت شي منها مكتوب فيها !!؟

وهكذا، أخذ الخفاش يفقد مصداقيته، ويخسر زبائنه، فصار لزاما عليه البحث عن حلول؛ أخيرا اشترى راديو ترانزيزتر صغير، وصار يسمع نشرة الأخبار قبل الخروج، ثم يصيح على الناس بأبرزها .. لكنه أدرك أن أخبار الجريدة تختلف عن أخبار الراديو، وأخبار الناس التي يسمعها منهم تختلف عن الاثنين. في نهاية المطاف،

وبعد تجاربه المريرة مع الناس، والإحراجات التي تعرض لها، قرر أن يبيع جرائده صامتاً .. وأن يتكيف مع حجم مبيعاته الأقل.

في القرية، كان الأطفال يطاردونه، ويسخرون منه، في المدينة ها هم الكبار يستغلونه للترويج لبضائعهم وتوجهاتهم .. ومع كل هذا كان راضياً، وقانعاً .. فما أن ينهي جولاته ويعود إلى غرفته آخر المساء يكون التعب قد نال منه، فيغفو سريعا .. لكنه في السنين الأخيرة، لم يعد ينام بسهولة، وصار الليل طويلا وأحيانا بلا نهاية، ولولا ضجيج الصباح لما عرف أن ليله قد انتهى وبدأ نهار جديد، وهكذا أخذ الملل يتسرب إلى قلبه، والمساحات القاتمة من حوله تزداد شيئا فشيئا، وتطبق عليه من جميع الجهات .. ظل يبحث عن شيء مجهول، يعيش على أملٍ لا يعرف ملامحه، وينتظر فـرَحاً لا يعرف شكله .. ظل ينتظر وينتظر حتى وصل إلى حافة اليأس ..

كان للخفاش قدرة فائقة على تمييز الروائح والأصوات، وتخزينها في أعماق ذاكرته، ومهارة مدهشة في فهم الناس دون أن يراهم؛ فمن رائحة الجسد والملابس يعرف لأي شريحة اجتماعية ينتمي الشخص، ومن نبرة صوته يحلل شخصيته، ومن عطره يقدر مستوى ذوقه، وإذا صافحه يدرك إذا كان طيبا أم ماكرا، ومن دفئه يحس بأوجاعه، ومن أسلوبه يشعر بخفة دمه ومرحه، أو طيشه وتهوره، أو كراهيته غير المبررة للآخرين ... أما لتقييم الجمال فكانت له معاييره الخاصة، فمن خلطه لكل ما سبق، ومن خلال الأطياف اللامرئية، وظلال الروح التي لا تدركها الأبصار كان يعرف أن «مها» مثلاً متألقة دوما، لكن حظها عاثر، و«مفيد» ذميم الخلقة

والخُلُق، و«محمود» شديد العناية بأناقته، لكنه متعجرف، و«أبو تحسين» متوسط الوسامة، وقلبه أنقى من أول الثلج، و«ياسر» يبحث عن صديق مخلص بلا طائل، و«شعبان» في منتهى الغباء .. أما «رمزية» فكان من السهل عليه، بل على أي أحد أن يعرف أنها ثرثارة..

مع أن ثقته بالناس تعرضت لهزات عنيفة، إلا أنه لم يفقد الأمل كلياً، فمثلاً حين كان يُفرِغ ما في جيوبه مما جمعه طوال اليوم يكتشف بعض القطع النقدية المزيفة أو عديمة القيمة، أو أزرارا معدنية .. لكن «أبو علي» الصراف كان يعوضه خسائره النفسية والمادية، فهو لا يكتفي بتحويل أغوراته إلى أوراق مالية من فئة المائة شيكل، بل يضيف عليها مما تجود به نفسه.

في الليالي الباردة، كان يقلب ذكرياته البعيدة، فيتذكر أيام القرية؛ حين كانت تتوالى عليه الأيام والليالي ثقيلة بطيئة مكررة، كل دقيقة تشبه سابقتها تماما، كانت تأتيه مغلفة بالصمت، مغمسة بالقلق، كان يصحو في وقت ما ولا يعرف إذا كان نهارا أم ليلا، فكل ما حوله غارق في ظلام دامس، لم يكن حوله أي شيء يؤكد له أنه ما زال حياً، السرير الهزاز، النملية المهترئة، النافذة الموصدة .. ماذا لو كان هو وكل ما حوله ينتمون للعالم الآخر !؟ كانت هذه الفكرة تجتاحه بسرعة، حتى تشعره بفزع شديد، فيبدأ بالصراخ بأعلى صوته.. إلى أن يجيبه أي شخص ليؤكد له أنه لم يمت .. وطالما تساءل في داخله: ما الذي يخيفني من الموت لهذه الدرجة ؟! بل ما الذي يجعلني متمسكا بهذه الحياة البائسة ؟! كان يخفق في إيجاد أي تفسير .. سوى غريزة البقاء .. اليوم يمكن أن يضيف سببا آخر .. حبه للحياة ..

كان يحسُّ بنسمةٍ لطيفة تداعب وجهه، فيعرف أن سيدة ما ستعبر من أمامه بعد قليل، وإذا سمع موسيقى ساحرة تداعب أوتار قلبه، فيعرف أن من ستأتي فائقة الجمال .. ومن هنا بدأت محاولاته في فهم الجنس الآخر، وفك لغز المرأة، وسر أثرها على الرجل ..

كبر «الخفاش»، وصار في منتصف العقد الثالث، وقد مر على مكوثه في نابلس قرابة العشر سنوات، حفظ شوارعها وحواريها كما يحفظ باطن كفه، كثيرا ما كان يأتي أحدهم ليمسك ذراعه عارضا عليه المساعدة، فيقول له ممتنّاً: صدقني بعرف الطريق، شكرا. كل هذي السنين مرت عليه بأحمالها، داست على صدره بكل ثقلها، خضَّت أركانه بلا رحمة، لم يلمس طوالها جسد امرأة، لم يداعب طفلاً، لم يقبِّل أختاً، لم يلوح بيده مودعاً عزيزاً مسافرا، وبالتالي لم يجلس على شباكه يتحرق شوقاً في انتظار غائب طال سفره .. نابلس المدينة الوحيدة في العالم التي يعرف كل سكانها بعضهم البعض، كل الذين عرفهم كانوا يتعاملون معه بإشفاق، لم يلجوا داخله، لم يكتشفوا إنسانيته، لم يسمعوا أنينه، لم يعرفوا شكواه، صديقه الوحيد صار الراديو، كيف غاب عنه أن يقتني راديو منذ كان طفلا !؟ إنه جهاز رخيص وكان بمقدور أي واحد من قريته شراؤه له !!

– شو أخبار اليوم يا خفاش ؟

كان صوتا أنثويا مثيرا، وينبض بالحنان، من شدة ارتباكه كبّله الصمت. تناولتْ جريدة، وأمسكت بطرف يده، ووضعت فيها خمسة شواقل، أحس بدفء يدها، ونعومتها، قالت له شكرا، وغادرت على الفور، تاركة خلفها فوضى عارمة، اجتاحت دواخله،

وجعلته في حالة ذهول غير مسبوقة، حتى أنه لم يفهم ما جرى له، اختفت بنفس السرعة التي ظهرت فيها، كما لو أنها مجرد طيف، لكن صوتها ورائحتها لم يغادرا المكان.

لم تعرف «ليلى» ما الذي شدّها إلى هذا الرجل الكفيف ؟! ما سر جاذبيته ؟ ولماذا صارت تأتي كل صباح لتشتري منه جريدة !؟ أما هو، فصار ينتظر الصباح مثل العصافير، يجلس في ذات المكان عند مدخل «المول» الجديد، لا حاجة له بأن يصيح كعادته: «جرايد، جرايد» .. يكفي أن تأتي واحدة بعينها لتتناول جريدتها، وتجعل لنهاره طعما مختلفا ..

لم تعد تكتفي بسؤاله عن أهم الأخبار؛ صارا يتبادلان الأحاديث، أحيانا باقتضاب، وأحيانا بإسهاب، في شتى المجالات، لكنهما كانا حريصين على البقاء في مربع معين، يحدثها عن هواجسها ومخاوفها وقلقها، ويقرأ لها الطالع، أما هو فكان يكتشف عوالمه المخبأة في دواخله، كان معها يشعر بقيمته، يحس بشيء غامض لم يختبره من قبل، لكن إحساسه هذا أخذ يتزايد بشكلٍ لا قِبَل له به.

يقولون إن الحب أعمى، ولكن «خفاش» أثبت أن هذا غير صحيح، فقد جعله الحب مبصراً، جعله يرى الدنيا بقلبه، بأبهى صورها، بصورة لم يعرفها معظم المبصرين، وكلما فاض قلبه بالحب، تقلصت مساحات العتمة التي كانت تغشي عينيه.

صارت «ليلى» تمر عليه بعد الظهيرة، يتجاذبان الحديث، ويسرقان الضحكات، ثم تمسك بيده وتقوده حتى أطراف حارته، وفي إحدى العصارى دعاها لغرفته المتواضعة، فلم تمانع، لكنها

فوجئت بالمنظر، وهالها كيف بمقدور إنسان أن يتحمل تلك البيئة. على الفور شرعت بحملة تنظيفات، وأعادت ترتيب أثاثه المتهالك، بعد ساعتين كانت لمساتها الأنثوية قد جعلت من الغرفة شيئا جديدا بكل معنى الكلمة، كان كلما نظفت شيئا يشكرها، ويذكّرها بأن حياة الضرير تتطلب نظاما معينا، حتى يحفظ أماكن الأشياء وأبعادها ومقاساتها.

جلست على المقعد المقابل، ورفعت طرف ثوبها، وهي عادةً لا تكشف عن ساقيها إلا لأمرٍ عظيم، لكن يبدو أنها نسيت أنه لا يرى، فأصيبت بخيبة أمل، وقد أدركت أنه لن يقدر جمالها. كان قد اقترب من نهاية الثلاثينات حين لمسها أول مرة، وضع كفّه على وجهها، تحسّسه بتأمل، ثم نزل ببطء إلى عنقها، كان ناعما وطريا، ثم مرر كلتا يديه على كل جسدها بكل رقة، كان كمن يكتشف خرائط جديدة لعوالم لم يزرها أحدٌ من قبل. شعر بقشعريرة هزت أركانه، خفق قلبه بشدة وتسارع نبضه .. كان مضطربا على نحو غير مفهوم، لكن سعادة من نوع لم يختبره من قبل كانت تغمره تماماً .. أنفاسه كانت تذيبها كقطعة شوكولاته معروضة في الشمس، أما عطرها فجعله يحلق في علّيين .. لم يشعرا بالوقت، انفصلا كلياً عن الدنيا كما لو أنهما غادرا الكوكب ..

«نابلس مدينة تفكر بعقلية قرية، وقد صرنا حديث البلد»، هذا ما قالته «ليلى» وهي ترجوه أن ينهي هذه العلاقة المستحيلة، أما لماذا مستحيلة ؟ فلأنه من غير الوارد أن يوافق أهلها على زواجها منه، وهو يريدها بشدة، لكنه لا يريد إنجاب أطفال، حتى لا

يورثهم العمى، وهي تحلم أن تصير أُماً، وهما لا يستطيعان الفرار من قدريهما، ولا يقدران على مواجهة الواقع.

سنة كاملة، ربما هي الأجمل في حياتها، لكنها بالنسبة إليه السنة الوحيدة التي ذاق فيها طعم السعادة، وعرف معنى الحياة، إلا أنها مرت كومضة، وانتهت بصورة مدوية؛ فقد اختفت «ليلى» ... منذ أكثر من شهرين لم يشتم عطرها، لم يسمع ضحكتها، ظل يتساءل والألم يعتصر قلبه .. أين اختفت هذه المجنونة ؟ هل يا ترى زوّجها أهلها غصباً ؟ أم قتلوها ؟ أم سافرت ؟ أم حبسوها في قبو معتم ؟!

طوال السنوات العشر التالية، والخفاش ينتظر، يقف كل صباح، عند مدخل «المول»، ويصيح بصوت يشبه النحيب: جرايد جرايد .. ثم ينتظرها بعد الظهيرة عند شارع الأنبياء علّها تأتي وتمسك بيده، ثم يعود لغرفته يحدوه شعور غامض بأنها تنتظره هناك، وأنه ما أن يفتح الباب حتى تقول له «ما أحلى هالطلة يا طلال» .. من سيناديه باسمه الأول بعد اليوم ؟ ثم يجلس على شباكه يتحرق شوقا .. في جوف الليل يتقلب على جنبيه وقلبه متجهُ صوب الباب على أمل أن تطرقه في أي لحظة ..

في ذلك اليوم التشريني البارد، وبعد مغيب الشمس بقليل، دخل «الخفاش» غرفته، كان تعبا وشاحب الوجه، وقد أيقن أن «ليلى» لن تعود، جلس بتثاقل، لم يشعر بالوحدة كما شعر بها هذه المرة، تأمل ماضيه كما لو أنه يشاهد فيلما سريعا، تذكّر قبلتها، مرر أصابعه على شفتيه فأحس بأن طعم الشهد ما زال طازجا، وسمع صدى ضحكاتها تتردد بين جدران الغرفة، بل في جنبات الكون ..

صنع صاروخا بمقعدين، أحدهما فارغ، وانطلق به نحو الفضاء الخارجي .. ظل يجوب سماء نابلس أسبوعا كاملا قبل أن يطرق أهل الحي بابه .. كانت أول مرة يُطرق هذا الباب .. لكن الخفاش لم يسمع شيئا .. كان في مكان آخر ..

لاجئ سوري

بينما كان المهندس «حمدان» ينسق إحدى الحدائق المدرسية في «إربد»، جاءه طفل في العاشرة من عمره، يرتدي زيا مدرسيًا مهترئًا، وعرض عليه مساعدته، فسأله على الفور: وماذا بشأن مدرستك وحصصك ؟! فقال: لقد طلبتُ إذناً من الأستاذ وسمح لي. ورغم تعجبه من الإجابة إلا أنه وافق، حيث أنه لم يرد أن يخيّب أمل الطفل، خاصة مع حماسته الظاهرة.

عمّو فكرك الأستاذ رح يعطيني علامات لأني بنظف حديقة المدرسة ؟!

أكيد، طبعًا .

انتهت الحصة السادسة، وانصرف التلاميذ إلى بيوتهم، إلا «شادي»، الذي رغم تعبه، كان يواصل طرح أسئلته المحيرة وإجاباته المرتبكة، وفي عينيه يلمع بريق غريب، وكأن فيهما كلام كثير ..

عمّو، ممكن جوالك شوية، بدي أطمّن أمي. أكيد أهلي بكونوا قلقانين عليّ لأني تأخرت ..

طبعا، تفضل عمّو ..

يدير شادي وجهه، ويبتعد قليلا، وبصوت مرتبك: آلو ماما، شو طابخة عالغدا !؟

بعد أن أنهى حمدان العمل، وهمَّ بالانصراف، استغرب أن شادي ما زال موجودا، فسأله عمّا ينتظر، فأجاب: بستنّى بابا .. رح ييجي بالسيارة يوخذني كمان شوية.

التقط حمدان هاتفه، وتفقد سجل المكالمات، فوجده فارغا، فتوجه إلى حارس المدرسة ليعرف منه قصة الطفل الذي ما زال ينتظر: إنه شادي .. لاجئ سوري، قُتل أهله كلهم في الحرب، ولا يحمل أي ورقة تثبت أنه إنسان على قيد الحياة .. ولم تقبل أي مدرسة أن تسجله، وهو منذ بداية السنة، يأتي كل صباح، ويقف على سور المدرسة، يراقب الطلبة بصمت، وبعد الظهر، يختفي، لا أحد يعلم أين يذهب، ولا من أين يأتى !!

نساء سجينات[1]

في قاعة صغيرةٍ في الطابق الأرضي من إحدى البنايات المهجورة على أطراف المدينة، وضمن إجراءات بالغة السرية والتعقيد تنظم مجموعة من النساء مؤتمرهن السنوي، تحت شعار «نساء سجينات»، وفي هذا المؤتمر تأتي النساء اللواتي تعرّضن للاختطاف أو للحبس، ويعرضن مشكلاتهن، وتتحدث كل واحدة منهن عن تجربتها الخاصة، وفي العادة تتصدر القاعة النساء المتوفيات أولا، وفي المقاعد الخلفية تجلس اللواتي ما زلن على قيد الحياة، وأمامهن شاشة متوسطة متصلة بنظام «فيديو كونفرينس» للاتصال مع النساء اللواتي لم يتمكن من الحضور شخصيًّا. وفي هذا العام عُقد المؤتمر في فلسطين، والسبب أن أغلبية المتحدثات فلسطينيات.

في الجلسة الافتتاحية وقفت سيدة (من الأموات) لتحكي قصتها، قالت: «في البداية أشكر لكنَّ حضوركن، وأرجو قبول اعتذاري عن ذكر اسمي، لأني في الحقيقة وأثناء سنوات الحبس فقدت ذاكرتي، ونسيت كل شيء، ولم أعد أتذكر إلا عذاباتي ومعاناتي»، تنهدت بحسرة وبدأت بسرد حكايتها: «في الانتفاضة الأولى، أثناء

(1) جميع القصص في هذا الفصل حقيقية، تماما، وبالأسماء والأماكن والتفاصيل، تصرفت بها قليلا لتكون قصة واحدة، تحكي عن جانب معتم من الظلم.

مطاردة الشبان المطلوبين، اقتحم جنود إسرائيليون المنزل الذي كنت محبوسة فيه، وهو يقع في إحدى مخيمات رام الله، وكانت المفاجأة الصادمة لهم رؤيتهم لبقايا فتاة نحيلة في أواخر العشرينات، شعرها كث ومغبر، أظافرها طويلة وقذرة، يغطي جسدها العاري طبقات من الوحل، عيناها غائرتان، وتصرخ بشكل هستيري... هذه أنا... وكانت أول مرة لي يراني فيها بشر منذ سنين طويلة... أخذني الجنود للتحقيق، وقلت لهم إن والدي حبسني في هذه الغرفة قبل أكثر من عشر سنوات، بعد أن لاحظ أحد الشبان من الجيران يتقرب مني، واتهمني أنني أبادله النظرات من حين لآخر».

وتضيف قائلة: «لم يكتفِ أبي بحبسي كل هذه السنين بلا ذنب اقترفته، فبعد أن أمضى عقوبته القصيرة في السجن، خرج، وكان أول شيء فعله هو قتلي، لأنني تسبّبت له بفضيحة... وبعد قتلي لم أعرف ما جرى له».

المتحدثة الثانية فتاة نحيلة في أوائل العشرينات، لكنها تبدو طفلة، وقَفَتْ بانكسار أمام الحضور لتروي قصتها، وفي البداية اعتذرت عن ذكر اسمها بحجة أنها نسيته أيضًا، وقالت بصوت مخنوق: «أواسط التسعينات من القرن الماضي، وفي منطقة بيتونيا حيث أسكن، اكتشفت الشرطة الفلسطينية أن عائلتي تحتجزني في غرفة ملحقة بالمنزل، وهذه الغرفة كانت ضيقة ومعتمة، ولا يوجد فيها نافذة أو حتى حمّام، كان أهلي يلقون إليَّ الطعامَ من تحت الباب، وكنت أقضي حاجتي في نفس المكان، الذي تحول مع الزمن إلى مزبلة، كنت أصرخ وأبكي وأطرق الباب طول الليل، لعل أحدهم

يسمعني، فما كان منهم إلا أن قاموا بدق المسامير في الباب، حتى لا أستطيع طرقه، فلا أزعجهم بالصراخ ولا يسمع أنيني أحد. هكذا أمضيت تسع سنين كاملة. وقد أودعوني فيما بعد في مصحة عقلية، ولم أعرف حتى الآن ما هو ذنبي.

المتحدثة الثالثة من غزة، حصَلتْ على تصريح خاص وحضرَتْ لتقص علينا قصتها التي تشبه الخيال؛ قالت بصوت متحشرج: «أنا أيضًا أعتذر عن التعريف باسمي لأن الجيران ما زالوا يتكتمون عليه، لا أدري إذا كان ذلك تواطؤًا مع إخوتي، أم خشية عليَّ! على أيِّ حال لا يهم الاسم، المهم المأساة التي عشتها.

«كنتُ شابة يافعة عندما توفي أبي، وكنت مخطوبة وعلى وشك الزواج، تجرأتُ بطلب حقي في الميراث من إخوتي «الذكور»، لأستعين به على مصاعب الحياة، سيّما وأنني مقبلة على الزواج، وأعرف أن خطيبي لا يملك شيئًا من حطام الدنيا، فكان أول شيء فعله إخوتي هو فسخ خطوبتي، ثم رموني في قبو مظلم، غير مؤهل حتى لتربية الحيوانات، وبقيتُ فيه مدة 14 عاما متواصلة، لم يجرؤ أحد من الجيران على إنقاذي، خوفا من أهلي، وقد يئستُ من الصراخ والمناداة؛ حتى اكتشفتني الشرطة بالصدفة، حين فتشتْ منزل شقيقي الأصغر، وعُثر عليَّ وأنا في وضع مزرٍ للغاية، كنتُ محتجزة في ما يشبه الزريبة المليئة بالأوساخ والقاذورات، وعندما دخلوا عليَّ كنت نائمة على الأرض فوق كومة أخشاب متلاصقة وضعتُ عليها فرشة دون غطاء، مع وسادة عفنة سوداء، وفوق رأسي سقفٌ من الحديد الصدئ المليء بالثقوب التي كانت تدخل منها مياه الأمطار فتبللني،

كانت حالتي النفسية بائسة للغاية، وقريبة من الجنون، وفي ردة فعلي الأولية؛ انكمشت على نفسي، وخبأت وجهي بين كفّي، ولم أصدر أي صوت. كنت حينها قد بلغت من العمر خمسة وأربعين عامًا».

المتحدثة الرابعة وقفت وفي عينيها شرود وتيه غير عاديين، قالت: «اسمي براءة، وأسكن في قلقيلية، بدأت قصتي الحزينة عندما تطلّقَتْ أمي، وكنت حينها في الحادية عشرة من عمري الضائع، تزوج أبي واسمه حسن ملحم، من امرأة شريرة تدعى حنان العاصي، لاحظوا الأسماء ودققوا في معانيها، هذا الذي اسمه حسن، وتلك التي اسمها حنان حبساني داخل الحمّام مدة تسع سنوات بالتمام والكمال، لا تسألوني عن تهمتي، فقد كنت طفلة ولا أذكر أني طلبت حتى علبة ألوان، كنت أمضي الوقت جالسة على أرضية الحمام، أرتعد خائفة مذعورة، وأحيانًا كنت أسمع أحاديثهم، وإذا صرخت أو ناديت أحدًا كنت أُعاقب. كان يأتي أبي ليوقظني عند منتصف الليل، لا ليقبّلني أو ليغطيني كما يفعل الآباء؛ بل لتنظيف البيت، فأظلُّ أنظفه لساعات، ثم يعيدني إلى الحمام لأنام فيه.

كان «الراديو» الشيء الوحيد الذي ارتبطتُ عبره بالعالم الخارجي؛ لذلك أنا لا أعرف شيئًا عن تلك الأشياء التي تسمونها «كمبيوتر» أو «تليفزيون» أو«تليفون»، في آخر ليلة لي في زنزانتي جاءت الشرطة وحررتني».

المتحدثة الخامسة أطلت من شاشة الفيديو كونفرنس، كانت تشبه الإنسان الأول؛ ثيابها ممزقة، شعرها طويل ومغبر، شكلها فوضوي، وعلى ما يبدو أنها فقدت المهارات البشرية، وفقدت قدرتها على الاتصال والتواصل، وقفت إلى جانبها سيدة أنيقة، وقالت:

أحييكم من ريف دمشق، أنا المترجمة الخاصة لهذه الإنسانة، قد تظنون أنني أتيت بها من أحد كهوف العصر الحجري، والحقيقة أن الشرطة عثرت عليها داخل أحد الكهوف المجاورة لمنزل أبيها في العام 2007، اسمها سمر، وعمرها (19 عاما)، حبسها والدها عندما بلغت السادسة، لكن مأساتها بدأت قبل ذلك بكثير؛ أي عندما كانت رضيعة، فبعد انفصال والديها أخذها والدها إلى حضانته، ولكنها عادت إلى بيت جدها بعد عام، بجسد مشوّه ومحروق بالنار في مواضع كثيرة. ثم استعادتها أمها إلى أن بلغت السادسة، فعاد والدها مجددًا، وأخذها بحجة أنه يريد أن يتولى رعايتها بنفسه. بعدها، لم تتمكن الوالدة من رؤية طفلتها، إذْ تم إبلاغها أن ابنتها توفيت.

وقبل أن يفقد المؤتمر اتصاله اللاسلكي مع سورية، أحضرت المترجمة نفسها فتاة أخرى، ترتدي ملابس رثة مهترئة، نحيلة مثل هيكل عظمي، وساقها اليسرى مربوطة بجنزير حديدي، قالت المترجمة: «هذه فريدة، من «السلمية»، تبلغ من العمر 18 سنة، وهي معاقة عقليًّا، لا ندري إذا ولدت هكذا أم أنها فقدت عقلها بسب حبسها في ظروف بائسة في غرفة معزولة، لم تخرج منها طيلة ثماني سنوات. وطوال هذه السنين كانت مربوطة إلى الجدار بسلسلة حديدية، وقد ربط الأب كلبًا متوحشًا أمام باب غرفتها لمنع أي شخص من الاقتراب منها».

ثم أضافت: «لدينا ثلاث حالات أخرى مشابهة، ولا أدري إذا كان الوقت يسمح باستعراض قصصهن». وقبل أن تسمع الإجابة انقطع البث.

تحول الإرسال مباشرة إلى المغرب، وبالذات إلى إقليم «تاونات»، ورأسًا ظهرت على الشاشة سيدةٌ شاحبة الوجه، غائرة العينين، وعلى محياها علامات الخوف والذعر، وقالت: «اسمي نبيلة، قبل فترة بسيطة حررتني قوة من الدرك من سجني الذي أمضيت فيه سبع سنوات بلا ذنب، وهذا السجن عبارة عن اسطبل للمواشي، متسخ وقذر، لم يسمح لي إخوتي بالخروج منه أبدًا، ولا حتى رؤية الناس، واعذروني إذا لم أكمل قصتي، حيث ستأتي الشرطة بعد قليل، لنقلي إلى مستشفى للأمراض العقلية، لا أدري إذا كان هو المكان الأفضل أم لا، على الأقل أرجو أن يكون نظيفًا».

ثم تحول البث مباشرة إلى إقليم «الجديدة» في المغرب أيضا؛ فظهرت سيدة هزيلة، تبدو في خريف العمر، وتعاني من اضطرابات نفسية شديدة، قالت بتلعثم وارتباك: «اسمي فوزية، عمري الآن 29 سنة، أمضيت منها 24 سنة كاملة محتجزة ومرمية في ظروف لا إنسانية ومهينة، فيما يشبه الغرفة على سطح منزل والدي، تنعدم فيها التهوية والإضاءة، ولا تتوفر فيها أبسط مقومات الحياة، كل ذلك بحجة خوف الأسرة من الفضيحة، لأني كما يقولون عني متخلفة عقليًّا، ولولا قوة الدرك التي حررتني لبقيت في هذا السجن إلى أن أموت».

بعد المغرب، تحول البث إلى السعودية، ظهرت فتاة متوسطة الجمال، لكنها شديدة النحول، قالت: «سأنهي كلامي سريعًا، قبل أن يرحل أهلي إلى مضارب جديدة، اسمي عنود، من محافظة «رماح».

ابتلعت ريقها ثم تابعت: عمري عشرون سنة، أهلي دائمو الترحال في الصحراء، ومنذ أبصرت الدنيا، وأنا داخل هذا القفص

الحديدي الذي بالكاد يتسع لي، وهو لا يقيني حر الصحراء ولا بردها، وضعني أهلي في هذه الزنزانة المتنقلة، لأني أعاني من اضطرابات عقلية، وهم يخشون أن أهرب! ولكني وعدتهم ألّا أهرب ثانية، فأنا لا أعرف أين أروح، لكنهم لم يصدقوني، أرجوكم صدقوني أنتم ... أنا زهقت من الحبس...!».

ومن السعودية تحول البث مباشرة إلى الجزائر، أطلت سيدة تبدو كأنها على حافة قبرها، وبدت في حالة من اللاوعي، قالت: «اسمي زهرة، عمري الآن 48 سنة، وقد مضى على حبسي ثلاثون عامًا كاملة، أي أكثر من المؤبد، اعتقلني والدي وشقيقي عندما كنت يافعة، نضرة، مقبلة على الدنيا، لكني كنت أجهل أن هذه الدنيا ستكون عبارة عن حظيرة أغنام. كل ذنبي الذي عوقبتُ عليه أني أحببت شخصا (لا أذكر اسمه الآن) وقد حملت منه بطريقة غير شرعية. حبسني أهلي كل هذه السنين، مقيدة من رجلي مثل الحيوانات، بين الأغنام والماعز، حتى حجتهم من الفضيحة كانت كاذبة، فلو أرادوا لي الستر لأعطوني ثيابًا أغطي بها جسمي، أعذروني، فلم أعد قادرة على التحدث، ولا حتى راغبة به... أنا الآن متعبة، دعوني أمُت بسلام».

بعد ذلك وقفت رئيسة المؤتمر أمام الحضور، واستعرضت تقارير حصلت عليها من الشرطة، ومن وزارة الشؤون الاجتماعية، قرأت منها مقتطفات: «على غرار ما فعل الأب النمساوي الذي احتجز ابنته مدة 24 عامًا متواصلة، وأنجب منها سِفاحا 7 أطفال، في جريمة هزت المجتمع النمساوي حينها، تكررت الحالة في البرازيل مع أب سجن ابنته سبع سنوات، ظلَّ خلالها يغتصبها حتى

أنجب منها ثلاثة أطفال. وفي مصر أيضا توجهت سيدة شابة إلى قسم بولاق في القاهرة واتهمت أباها باحتجازها مدة 7 سنوات متواصلة، كان خلالها يغتصبها ما أدى لحملها مرتين».

ثم أنهت السيدة حديثها قائلة: «هذه مجرد قصص حدثت فعلا، ومن الممكن أن تحدث وأن تتكرر في أي بقعة من هذا العالم الظالم، وقد تكون أكثر بشاعةً... كلها تدور حول سجن فتاة، مدة مفتوحة في ظروف لا إنسانية مهينة، تنتهي في أغلب الأحيان بوصولها إلى حافة الجنون، بعد أن تكون قد خسرت سني عمرها، في القهر والخوف والجوع والبرد والمهانة والألم؛ هذه السنون التي من المفترض أن تكون الأجمل والأحلى... إذا بها تستحيل إلى جحيم مستعر، وأنّات من العذاب، وآهات من الوجع... ترددها كل ليلة كلما أعتمت عليها السماء، فتصرخ ولا يسمع من صرخاتها إلا الصدى... ليؤكد وحدتها، وينبئها بضياع ما سيأتي من أيام، حتى تخر آخر خلية من عقلها ذليلة مسحوقة».

وأضافت: قبل ختام مؤتمرنا هذا أتساءل بحرقة: هل سنظل نكتشف المزيد من هذه القصص المروعة من حين لآخر؟ هل هناك المزيد من الفتيات المسجونات اللواتي لا يستطعن أن يطرقن باب الخزان؟

دار الحنان .. اللي بالعطيفية[1]

الصورة التي نُشرت على «النت» قبل سنوات، عن حضانة دار الحنان (اللي بالعطيفية) ليست دقيقة تمامًا، أرجوكم انتبهوا جيدا لما سأقوله: كنتُ حينها نحيفًا لدرجة لا تُصدَّق، اليوم صرت سمينًا ومحيط خصري يتجاوز المتر... كنتُ مقيدًا بالسلاسل مثل كلب، الآن أمشي في الشارع وأعربد فيه كما يحلو لي، ولا يجرؤ «ابن كلب» أن يضع عينه في عيني... كنتُ ضحيةً مسكينة. اليوم صرتُ أضحّي بعباد الله في كل عيد. أرجوكم لا تكرهوني قبل أن تسمعوا قصتي...

جندي المارينز الطيب، الذي سقاني يومها قنينة ماء كاملة، وابتسم لي بحنو ظاهر؛ اختفت ابتسامته بمجرد أن أطفأ المصور كاميرته، طلبتُ منه أن يحضر لي «ساندويتش هامبرغر» من المطعم المجاور، قال لي: OK، سأعود بعد نصف ساعة، انتظرته ثلاث

(1) هذه القصة حقيقية تماما، وجرت في حضانة في بغداد، حي العطيفية، اسمها دار الحنان.

سنوات ونصف ولم يأتِ. كم أنا أبله، احتجت ثلاث سنوات ونصف لأكتشف أنه كذاب!

كنا حوالي عشرين طفلا، كانت أعمارنا بين الثلاثة والخمسة عشر عامًا، نصفنا أيتام، لا ندري إذا قُتل آباؤنا في الحرب، أم أنهم ماتوا لأنهم كرهوا الحياة! خمسة منّا ليسوا أيتاماً تمامًا؛ فقد التقطهم الناس عن الرصيف جوار حاويات القمامة، أو من أمام أبواب الجوامع. لا يعرفون من هم آباؤهم، ولا أمهاتهم، وهل هم على قيد الحياة أم هاجروا وتركوهم لمصائرهم؟ وكان الباقون معاقين، تخلت عنهم عوائلهم لأسباب مختلفة. لم أقتنع بها، لكن آخرين كانوا يقولون دومًا: «في زمن الحرب، كل شيء جائز».

«أبو جاسم»، مدير الدار، في الخمسينات من عمره، متجهم، عصبي، يجلس دومًا أمام مكتبه الخشبي القذر، رأسه مائلةٌ للوراء، يشخر بصوت عالٍ، كرشه تتدلى من تحت الطاولة، وإلى الخلف منه لوحةٌ قديمةٌ يحيطها إطار فضي باهت، عليها الآية الكريمة «وأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ». لا أذكر أنه ابتسم يومًا، كان طول الليل يسهر مع الحراس الثلاثة، يشربون العرق، ويشتمون بعضهم بعضًا، أحيانا يختفي لأسابيع ثم يعود كالضبع. كان من النادر أن يتكلم مع أحد منا؛ ومع ذلك كنا نخاف منه. حين قُتل أمام الباب الخارجي للدار، فرح الأطفال وصفّقوا... أنا أشفقت عليه.

بالقرب من الدار، كان مطعمٌ شعبي تفوح منه روائح التمّن، والتشريب، واللحم المشوي، في الوقت الذي كنا نتضور فيه جوعًا، إذْ كانت تمضي أيامٌ متواصلة لا نذوق فيها لقمة واحدة. في الشتاء

الذي سبق التقاط الصورة الشهيرة لنا، كنا نرتجف من البرد، دخلَ أربعة مسلّحين، نظروا إلينا غاضبين، أخذوا فراشنا وخرجوا وهم يشتمون. في الصيف كنا ننام طيلة النهار، الحَر لا يُطاق، في كل صيف كنا نخسر طفلين على الأقل، في الشتاء، العدد أكبر قليلا. «غفّوري» ابن الثمانية أعوام، لم يمت بسبب الحر أو البرد، مات في الربيع، من مرض خبيث لم أعرف اسمه، لم يأتِ أحدٌ لاستلام جثته... لم يفكر أحد بدفنه... أخرجه الحراس بعد ليلتين، وألقوه في الشارع.

«حيدر»... كان أكبرنا سنًّا، غافل الحراس ذات يوم وهرب، هام على وجهه في الشوارع، أكل مما تجود به الحاويات، نام في بيوت الدرج، وعلى أسطح العمارات، في البيوت المهجورة، سرق قميصًا عن حبل غسيل، وبعد أسبوع عثرت عليه الشرطة ممددًا على الرصيف، قادوه إلى المغفر، طلبوا هويته، ضحك بسخرية، بصق المحقق في وجهه، ثم سلمه للجنود، وبعد أن أنهكوه ضربًا قال الضابط لهم: «خذوا ابن الحرام هذا، وأرجعوه إلى الملجأ». بعدها أتوا بحارس آخر، ونسوا أن يحضروا وجبة العشاء.

«مهدية عبد الخالق» موظفة في وزارة الشؤون الاجتماعية، عندما أتت لتتفقدنا قلتُ لها بصوت مخنوق: أرجوكِ خذينا لبيتك... ليلة واحدة فقط، نحن «بردانين وجوعى»... نظرتْ إليّ باستغراب، وقالت: أنت شنو؟ مخبّل!

عندما بلغتُ الرابعة عشرة، صرتُ أخجل من عريي. رجوتُ الحراس أن يحضروا لي ملابس داخلية على الأقل. عندما يئستُ، سألتهم باستغراب: لماذا تربطوننا بالسلاسل؟ ألا ترون أنَّنا

ضعاف، وإلى أين سنهرب؟ أجابني أحدهم: كلما نفك قيودكم نراكم تتكومون فوق بعضكم على سريرٍ واحد. قلت له: حتى نشعر ببعض الدفء. قال: بل أنتم سفلة، ولا تستحون!

في بعض الليالي، كان الحراس يأتون بفتيات من أعمار مختلفة، يأخذونهن إلى الغرفة الداخلية، يغلقون الباب. بعد ربع ساعة يخرجن منهكات، محطمات، وتبدو على وجوه الحراس نظرات التقزز. ينفحونهن بعض المال، ثم يغادرن.

«رويدة» كانت من أكثر الزبائن ترددًا، وهي في نهاية العشرينات من عمرها، وجهها مدور، هادئ، في عينيها دمعةٌ ساخنة، وحزن يكفي مدينةً متوسطة الحجم. اعتادت كل مرة بعد انتهاء مهمتها مع الحراس، أن تأخذ المال وتعود بعد قليل، ومعها ساندويشات كباب لجميع الأطفال. في المرة الأخيرة خرجت، وعلى بعد أمتار قليلة أطلق عليها مجهولون النار، سقطت مضرجة بدمائها. عندما عرفنا بمقتلها، بكينا بحرقة، ضحك الحراس علينا؛ تبكون على مومس يا كلاب!

ذات يوم، دخل الدار مسلّحان ملتحيان، دفعا للحراس مبلغًا سخيا، وأخذا «عليوه»، قالا له: عمرك الآن عشر سنوات، ما رأيك أن نجعلها عشرين دفعة واحدة؟ قال: كيف سأكبر بهذه السرعة؟! قالا: مقابل هذه السنوات العشر ستعطينا بقية عمرك. قال: وماذا سأستفيد؟ قالا: ستأكل وجبة كباب ساخنة، وستنام على فراش وثير، ولن يربطك أحد بالسلاسل بعد اليوم. قال مبتهجًا: موافق. ألبساه حزاما، وأوصلاه إلى السوق.

في الأسبوع التالي جاء مسلحان آخران، نفحا الحراس مبلغًا أكبر. أخذا «علاء»، قالا له: صديقك الخائن «عليوه» فجَّـر نفسه في حيّكم، وقتل ثلاثة من جيرانك الطيبين. سنعطيك حزاما آخر لتنتقم. قال: لا تنسوا وجبة الكباب والفراش الوثير!

بعدها، جاء إلى الدار لصوص، زعماء عصابات، قوادون، سماسرة، مهربون، قادة ميليشيا، مرشحون للبرلمان، باحثون من كليات علم الاجتماع، أطباء نفسانيون، رجال دين، رسامون. لم يأتِ أحد من أهالينا. كان الحراس يزدادون ثراء. ونحن نزداد هزالا. وننقص فردًا فردًا. أخيرًا جاء جنود «المارينز»، وجدونا بقايا بشر، لا نصلح إلا لالتقاط صورة.

ومع ذلك، سأشكر جندي المارينز «الكذاب». فلو قلت لكم هذا الكلام لما صدقتموني. وقلتم ربما يبالغ. لكن الصورة التي التقطها هذا الكذاب تفضح غفلتكم عنا، ودفاعكم الغبي عن الفاسدين. حين اكتشَفَنا الجنود، دخلوا علينا مباغتةً. كنا لثلاثة أيام خلَتْ دون طعام، عراةً تمامًا، كل طفل مقيدٌ إلى سرير، وحتى هذا السرير بلا فرشة ولا غطاء، أنا كنتُ مربوطًا بسلسة طولها أقل من طول المسطرة، ممددًا على أرضٍ باردة صلبة. كنا جميعًا هياكل عظيمة، نرتجف خوفًا، واهنين، لا نقوى حتى على الوقوف... الحراس الثلاثة هربوا... تبادل المسؤولون الاتهامات بشأن الفضيحة... قال المثقفون إن الصورة مبالَغٌ فيها... وتسابقت الصحف على نشر الصورة...

أخذونا إلى المستشفى، لأول مرة منذ سنوات تناولت وجبة كاملة. وزعونا على حضانات أخرى، أقلّ قسوة...

تفرقنا واختلفت مصائرنا، شيءٌ واحد سيجمعنا إلى الأبد؛ مقولةٌ كنا نرددها دومًا: الأطفال بحاجة إلى أب، حتى لو كان أباً أخرق. بحاجة إلى أم حتى لو كانت مثل «رويدة»، هم بحاجة إلى بيتٍ فيه تلفزيون، وأغنيات، وصور قديمة، وفرشاة أسنان. بحاجة إلى من يبتسم في وجوههم صباحًا، وإلى من يوبخهم عندما يتأخرون ليلا...

أخيار وأشرار

في سالف الزمان، يحكى أن بلادًا نائيةً، تعرضت لكوارث متلاحقة، أوقعتها في أزمة اقتصادية خانقة، وشُحٍ في وفرة الوقود، فجاء رئيس الحكومة وأصدر فرمانًا يقضي بتخصيص يوم للمركبات التي تحمل أرقامًا فردية، وآخر للأرقام الزوجية. وبعد سريان الفرمان، خفَّت أزمات المرور، وتقلصت نفقات الشعب من الوقود. أُعجب الوزير الأول بنجاح فكرة الرئيس، ولّما رأى أن بلاده ما زالت تعاني من عجز في الموازنة، ومن مشاكل اجتماعية لا حصر لها ولا عدَّ؛ تفتقت عبقريته عن فكرة تكرار تجربة السيارات على المواطنين أنفسهم؛ فاقترح أن يُخصَّصَ يومٌ للمواطنين «الأخيار» فقط، على أن يكون اليوم التالي «للأشرار».

وبالفعل، لوحظ بعد فترة أنه في يوم «الأخيار» تختفي المشاكل، وتنعدم حوادث المرور، ولا يسمع أحدٌ عن مشاجرات أو خلافات أو جرائم قتل وسرقة، أو خيانات زوجية. وعليه؛ فقد كانت معظم دوائر الدولة تعطل في هذا اليوم. فالمحاكم، مثلا لا تجد قضايا وشكاوى تنشغل بها، والشرطة تنشغل بهشّ الذباب، ورجال الأمن

يقضون إجازات سعيدة مع أطفالهم، وأطباء الطوارئ في المستشفيات يتفرغون للبحث العلمي، والصحفيون ينشغلون بكتابة مذكراتهم الشخصية لأن نشْرات الأخبار لن تتضمن سوى أخبار الفن وأحوال الطقس، ومعظم الوزراء وكبار رجال الدولة متغيبون، طبعًا لأن هذا اليوم مخصص للأخيار فقط...!

والعجيب أنه حتى في يوم «الأشرار»، لوحظ أيضًا أن المشاكل اختفت، ولم يعد أحد يسمع عن جرائم واعتداءات وسرقات واختطاف؛ وعلى ما يبدو أن المجرمين يحترمون بعضهم بعضًا، أو أن كل طرف يخشى من الآخر، فنشأ بينهم ما يمكن تسميته توازن الرعب؛ الذي أدى إلى إجبار العصابات على التوقف عن ممارساتها المعتادة، وحتى كبار رجال الدولة عندما وجدوا أنفسهم وحدهم خافوا من بعضهم ومن حسدهم لبعضهم؛ فراقبوا أنفسهم دون أن يقصدوا ذلك، وامتنعوا عن الاختلاسات.

في المحصلة لاحظت الدولة أنه لا ضرورة لوجود الشرطة والمحاكم، ولا داعي لكل هذه الأجهزة الأمنية والرقابية، وأنه يمكن الاستغناء عن كثير من مرافق ومؤسسات الدولة، وفي المحصلة، تقلص العجز في الموازنة، وتحسنت أحوال الناس.

بعد مرور فترة من الزمن، بدأ «الأخيار» يشعرون بالسأم، ويشتكون من روتين الحياة ورتابة أحداثها المملّة؛ فالأيام نسخة عن بعضها، والساعات تمر بطيئة، ولا شيء غير متوقع، أو غير عادي، الأغاني صارت مثل الأناشيد المدرسية، وكل الأفلام لها نفس النهايات السعيدة، حتى الأخبار باردة، وليس هناك تحديات، أو خروجٌ عن المألوف.

في المقابل بدأ «الأشرار» يحنّون إلى الأيام العادية التي يمكن لهم فيها أن يمارسوا هواياتهم المفضلة، وأن يقترفوا جرائمهم بشكل طبيعي، وحتى المختلسون بعد أن تقلص دخلهم صار ضروريًّا لهم العودة للزمن الاعتيادي.

وهكذا بدأ بعض «الأخيار» يخرجون من بيوتهم في غير يومهم، وكذلك فعل بعض «الأشرار»، ثم ازدادت أعداد المخالفين شيئًا فشيئًا، حتى انهار أخيرًا نظام الفصل العنصري بين الأخيار والأشرار، وبدأ الجميع يخرجون إلى الشارع في أي وقت يرغبون، وبدأت الحياة الطبيعية تدب في أوصال المدن، وعاد رجال الشرطة لممارسة واجباتهم في القمع، والعصابات رجعت لسابق عهدها، والأطباء لزيادة مهاراتهم في العمليات الجراحية، والإعلاميون لألاعيبهم وتقاريرهم، وكبار الموظفين لمواقعهم السابقة، والسياسيون لحروبهم وصراعاتهم، وعادت الموسيقى إلى الأغاني، ورجع الفنانون إلى لوحاتهم المبهمة، وألوانهم المجنونة، والنحاتون إلى تماثيلهم الغريبة، وعاد الشعراء يتغزلون بالقبل المسروقة، واستمر عمال البلدية في تكنيس الشوارع...

إعلانٌ في جريدة

خلال مسيره في طريق عودته إلى البيت لمح «وسام» أسفل السور، خلف الحاوية تمامًا محفظةً سوداء صغيرة، تناولها على الفور، وقبل أن يفتحها تلفّت يمنة ويسرة حتى اطمأن إلى خلوّ الشارع من المارين، لم يمكنه فضوله من الانتظار حتى يصل إلى بيته فيعرف ما في المحفظة. فتحها ليجد فيها مفاجأة العمر. رزمة دولارات خضراء لونها يسرُّ الناظرين. لم يصدق عينيه، وصعقته الدهشة حتى كاد أن يرقص في الشارع. وبلا وعي منه وجد نفسه يركض، ثم يقف، إلى أن هدأ قليلا وأخذ يمشي ببطء وهو يفكر ويحسب.

قرر إخفاء الأمر عن زوجته وأطفاله، إلى أن يتوصل إلى قرارٍ بشأن المبلغ، فربما تكون دولاراتٍ مزورة، وربما يثرثر أطفاله مع أصحابهم فيسمع أحدهم الخبر، فيأتيه مطالبًا بالمال مدّعيا أنه له، وهكذا أمضى مساءه محاولاً إخفاء ارتباكه قدر الإمكان، وظل صامتًا، غارقًا في أفكاره، إلى أن توجه إلى فراشه مبكرًا.

ظل يتقلب، تراوده أحلامه المجنونة تارة، ومخاوفه وهواجسه تارة أخرى، يصارع ضميره بين رغبته أن يحتفظ بالمبلغ والتمتع به،

أو أن يعيده لأصحابه. من هم أصحابه؟ تساءل، بالتأكيد صاحب المبلغ رجلٌ ثريٌّ جدًا، لدرجة أنّ فقدَ مثل هذا المبلغ سهلٌ عليه، حتى أنه لن يتعب نفسه بالبحث عنه! ولكن ربما يكون لأبٍ مكلوم جمعه من المحسنين بعد أن تنازل عن كرامته ليعالج ابنته المريضة بالسرطان، وربما يكون لموظف مسكين أفنى عمره وهو يدّخره ليدّرس ابنه البكر في الجامعة... أخيرًا اهتدى إلى قرار منحه بعض الراحة.

في اليوم التالي نشر إعلانا في الجريدة: «على من فقد مبلغًا كبيرًا من المال الاتصال بالرقم المرفق خلال أسبوعٍ من تاريخه، على أن يحدد بدقة المبلغ».

تمنى في داخله ألا يرى الإعلان أحد، حتى يمضي الأسبوع، حينها سيصرف المبلغ وهو مرتاح الضمير، مع ذلك توقع سيلاً من الاتصالات، وحتى لا يثير شكوك عائلته، قرر أن يمضي نهاره عند أحد الأصدقاء ليتلقى الاتصالات هناك، لكن عدد المكالمات فاق توقعاته بكثير، فقبل أن ينتصف الليل كان قد تلقى ما يزيد عن الخمسمائة اتصال.

المتصل الأول: «إنت بس إحكيلي أوصاف المبلغ، وإذا كانت صحيحة بكون المبلغ إلي، وإذا كانت غير صحيحة بقلكك لأ، ولازم تثق فيّ».

المتصل الثاني: «أنا كنت اليوم في المول واشتريت شوية أغراض ودفعت 600 شيكل، مع إنها أشياء بسيطة، يعني أكيد وقع مني 200 شيكل».

المتصل الثالث: «أنا اليوم مريت عالسوق، كان معي ألف شيكل، ولما روحت كانوا بس خمسين، صحيح أني صرفت شوية، بس أكيد وقع مني مبلغ معين وما بقدر أحدده بالضبط».

الرابع: «أنا أعطيت ابني 200 دينار ليدفع إيجار البيت، وحلف يمين إنه ضيعهم في الشارع».

الخامس: «أنا رئيس جمعية الأمانة الخيرية، وأرجو منك أن تتبرع بالمبلغ لصالح الجمعية، وإنساك من صاحبه».

التاسع: «أنا متأكد إنك ما لقيت مبلغ ولا شي، وهدفك تعمل دعاية لنفسك، وأنت واحد نصّاب».

السادس عشر: «شكلك موظف كبير، وناهب من خزينة الدولة، وبدك تبرر للناس من وين جبت المصاري، يا حرامي».

الحادي والعشرون: «أنا آنسة عمري تلاتين سنة، أقدس الحياة الزوجية وحلوة وبجنن، وعرفت من الإعلان إنك إنسان رائع وأمين، وحابه أرتبط فيك».

الثالث والثلاثون: «بارك الله فيك يا أخي المسلم، هذه هي الأخلاق الحميدة، ومثلك مكسب لتنظيمنا، ندعوك لأن نلتقي بعد صلاة العشاء في الجامع الكبير».

الأربعون: «أنا بقدر أطلع ملفك الكامل من رقم تلفونك، يا بتعطيني نص المبلغ، أو بدبرلك تهمة في حياتك ما بتطلع من السجن».

المئة: «صارلي من أول إمبارح بتصل فيك، وأنت خطك مشغول على طول، أو مسكر جوالك، يا أخي عيب عليك، أنا ضيعت آخر عشرين شيكل معي، وروحت عالبيت مشي».

المتصل رقم 320: «يا أخي أرجوك، يعني إنت ما تعبت في المصاري، وهي مش إلك، وبترجاك تعطيني منهم أي مبلغ، والله العظيم صارلي أسبوع ما تعشيت، وأولادي بفطرهم شاي وخبز، وبغديهم خبز وشاي».

المتصل 490: «شوف يا إبني، مهما كان المبلغ، لازم تدفع عنه ضريبة دخل، وإلا تعتبر مواطنًا غير صالح، ومخالف للقانون».

المتصل 500: «ولك وينك من الصبح بتصل عليك، أكيد أنت هسعيات عند مرتك الثانية ومسكر تلفونك، يعني صحيح اللي بتحكيه عنك إم يوسف إنه عينك زايغة، طيب أنا بورجيك، أنا رايحة عند أهلي، وبتبعتلي ورقة الطلاق والمتأخر، يا كذاب يا حقير!».

قطة أبو جابر

اعتاد «أبو جابر» أن يمضي نهاره بأكمله والساعات الأولى من الليل في دكانه الصغير، جالسًا خلف طاولته الخشبية، بين الفينة والأخرى يأتيه طفل صغير، «عمّو أعطيني حبتين علكة وباكيت شيبس»... «بتقلّك أمي بدها دوا غسيل»... «بسلّم عليك أبوي وبقلّك أعطيني باكيت دخان عَ الدّيْن»...

وفي الأوقات التي تخلو فيها الدكان من الزبائن، كان يستسلم لإغفاءة خفيفة، وسرعان ما يعلو شخيره، فيقطع نومته عليه أحد المارة، «مسا الخير أبو جابر، شو أخبار دبدوبة؟» فيصحو فجأةً متظاهرًا أنه كان غارقاً في التأمل، «الله يخزيك ويخزي دبدوبة، جفّلتني بصوتك اللي مثل زامور التراكتور»... وإذا كان المتحدث زبونًا محترمًا من الذين يشترون نقدًا، يبتسم له بتلعثم، «أهلين أبو عبد الله، تفضل...».

ونظرًا لبُعد بيته، فقد كان يأكل وجباته الثلاث في الدكان، فيتناول علبة سردين، أو علبة لبن، مع حبات من البندورة، وأحيانًا

يلتهم حبة شوكولاته، مع قطع من البسكويت. وما يزيد من طعامه يعطيه لقطته السمينة «دبدوبة».

كان «أبو جابر» قصير القامة، ومع الأيام نمت له كرش ضخمة، حتى صار شكله أشبه بأسطوانة الغاز، أما «دبدوبة» فقد تكيفت معدتها مع الطعام الجاهز، واعتادت على الكسل، فلا تصحو إلا عندما يوقظها «أبو جابر»، «ولِك إصحي، قومي تسمّميلك لقمة»... إلى أن صار وزنها بوزن قطتين، وحركتها بطيئةً متثاقلة، فكانت الفئران تمر من أمامها دون خوف، ما أتاح الفرصة لها أن تتكاثر، خاصة وأن الدكان كان فوضويًا، تتكدس فيه البضائع دون أي ترتيب.

ورغم العلاقة الحميمة التي كانت تربطهما معًا، التي لم يكن «أبو جابر» يجد لها تفسيرًا، إلا أنّ حنقه أخذ يزداد عليها في الفترة الأخيرة. فهو يطعمها ولا يستفيد منها، وامتلأ دكانه بالصراصير، والسحالي، والفئران. و«دبدوبة»، بدلا من صيدها، تستسهل بقايا وجبات «أبو جابر»...

بعد فترة، توصّل «أبو جابر» إلى قناعة أن قطته صارت عبئًا عليه، ومن الضروري أن يتخلص منها. لكن الأمر لم يكن بالسهولة التي تصورها، فكلما طردها عادت، حتى أنه حملها في سيارة جاره إلى القرية المجاورة، لكنها عادت في المساء نفسه. إلى أن يئس منها أخيرًا، وصار لزاما عليه أن يعتاد على وجودها، وعلى كسلها.

ذات يوم، فتح «أبو جابر» برميل الطحين، فذُهل مما رأى، أفعى سوداء ضخمة، تلتف حول نفسها مثل عجل كاوتشوك،

وعليها آثار من الطحين جعلت لونها مبرقشاً. كانت صدمة مرعبة له، وبحركة لا إرادية أعاد غطاء الصندوق على الفور، وبدأ يضع فوقه بعض الأكياس الثقيلة خوفًا من خروجها. عاد «أبو جابر» إلى مقعده وهو يرتجف، محاولا استيعاب الأمر. قدّر طولها بمترين. لم يعرف ماذا يفعل، وكيف يتصرف، جمد في مكانه يقلب الأفكار، ويطرح على نفسه الأسئلة، وبعد نحو ساعتين، كان الليل قد حل، وعليه أن يستعد لإغلاق الدكان والعودة إلى البيت. لكن كيف يترك دكانه وفي داخله أفعى بهذه الضخامة؟ أخيرًا هدأ روعه قليلا، واستبدل الأكياس الصغيرة المكدسة فوق البرميل بكيس واحد ثقيل من الملح، واطمأن لوزنه، وأن الأفعى لا يمكن لها الخروج.

ما إن دخل البيت حتى عاجلته زوجته بالسؤال: «مالك وجهك أصفر، خير شو في؟» وبعد أن أخبرها بقصة الأفعى، قالت له: «إهدا شوية، وخلينا نفكر بحل». «ولِك شو أهدى.. بحكيلك حية طولها عشرة متر، وبتحكيلي أهدى! صحيح إنك مجنونة...».

لم ينم «أبو جابر» تلك الليلة، خطرت في باله عشرات الحلول، وكلما اقترح حلّا وجد فيه نقطة ضعف، كانت خشيته من خروجها على غفلة منه، أو أن تتمكن من قلب البرميل بحركاتها العنيفة، فيسقط كيس الملح من فوقه. وبين اليقظة والنوم، كانت تمر عليه الأفكار أشبه بالكوابيس، وسيناريوهات أفلام الرعب.

فكّر مثلا أن يفتح غطاء البرميل بسرعة ويلقي «دبدوبة» فيه، ويضعها في مواجهة مباشرة مع الأفعى؛ هذه فرصة لأن يتخلص من إحداهما أو من كلتيهما. ماذا سيحدث للقطة في لحظة خوف مصيري

وقد تحولت إلى نمر؟ حينها ستمزق الأفعى إربًا، ألم يقل المثل: «مثل القط المحشور في الزاوية؟» تخيل حينها قطته تخرج من البرميل غاضبة، وفي فمها رأس الأفعى، ولعابها يقطر دمًا، ومن عينيها يتطاير الشرر. كيف سأسيطر عليها بعد اليوم؟ ربما تحتل الدكان وتلتهم كل محتوياته. ولكن، ماذا لو لدغت الأفعى القطةَ بسمّها، كيف سأخرجها بعد ذلك؟ وماذا لو بلعت الأفعى القطة؟ ستكون معدتها ممتلئة حتى الثمالة، وستكون في أضعف حالاتها، حينها يمكن لي أن أقضي عليها بسهولة. ولكن، ماذا لو خانتني شجاعتي؟

ثم خطر بباله أن يسكب الكاز على البرميل ويحرقه بمن فيه، لكنه خاف أن يحترق الدكان بأكمله. وفكر بإدخال لحمٍ مسمومٍ للأفعى من خلال فتحة صغيرة، لكنه سيخسر الطحين؛ أكثر من مائة دينار سيرميها في الحاوية، وتلك خسارة لا يحبذها.

وأكثر ما كان يقلق «أبو جابر» أن يعرف الزبائن بوجود أفعى في دكانه. حينئذ سيقاطعونه وسيخسر تجارته. قرر ألا يبيع الطحين، وإذا سأله أحد عنه، سيقول له إن الحكومة منعت الطحين عن القرية عقابًا لها على معارضتها لسياسة الرئيس.

لأيام متواصلة ظلَّ «أبو جابر» يفتح دكانه بحذر، يجلس خلف طاولته لساعات، ينظر إلى البرميل كما لو أنه قنبلةٌ موقوتةٌ ستنفجر في أيّة لحظة، ثم ينظر إلى قطته بحسرة وكراهية، وإحساسه بالعجز يشله تماما، ثم ينظر إلى كيس الملح فيطمئن قليلاً، مقنعًا نفسه أن دكانه بألف خير...!

ونِعمَ المربّي

ما إن دخل الأستاذ وليد غرفة الصف، حتى وقف أمام التلاميذ مقطب الجبين، ومن عينيه يقدح الشرر. نادى بصوتٍ هادئ ولكنه حاسم: «ولاك عمر، تع لهون»... تقدم عمر بخطى بطيئة مترددة، فصاح به: «إمشي بلا مياعة، ليش غبت إمبارح؟ وين كنت صايع؟»

«والله يا أستاذ كنت مريض بالفراش».

«مريض، ها! وين إجازة الطبيب؟».

«والله يا أستاذ ما معي إجازة، أبوي قال شغلتك بسيطة، وما بتحتاج دكتور».

«شايف؟ يعني حتى أبوك كاشف كذبك. وأنت لا مريض ولا شي، وأنا ما بتمر عليّ هاي الأفلام والحركات».

«والله يا أستاذ إني مريض، حس حرارتي بتعرف».

اقترب منه حتى صار أمامه مباشرة، وصفعه على وجهه بكل قوة، وهو يصيح بجنون: «كذاب، بتتخوث عليّ يا حيوان!»

ترنح الولد، وكاد أن يغمى عليه، لكنه استعاد توازنه بسرعة، وعاد إلى الخلف وهو يغطي وجهه بيديه، حتى جلس على مقعده دون أن ينبس بكلمة.

وقف الأستاذ أمام الصف، وبكل هدوء شبك يديه خلف ظهره، وقال بنبرة حادة: «أنتو ما بتعرفوا إنه الكذب حرام؟ أهلكم ما علموكم الأخلاق؟» كان الصف غارقًا تمامًا في الصمت، بينما أخذ يتمشى بين الأدراج، وهو يتشمم بأنفه كمن يتعقب أثرًا، وفجأة وقف أمام الدرج الأخير، ثم تناول من يده منديلا ورقيًّا وأمسك بأذن جلال وجره خلفه، قائلاً: «تعال يا جربوع، مش شامم ريحتك زي المزبلة! شكلك آخر مرة تحممت عَ العيد الكبير! بتسحب حالك عَ البيت وبتغير أواعيك وبترجع بسرعة البرق».

«بس بيتنا بآخر البلد يا أستاذ، وبدي ساعتين حتى أوصل!».

«مش مشكلتي هاي، وبالمرة بتلبس جاكيت دافي».

«الله يخليك يا أستاذ، الدنيا برد، وما صدقت وأنا أوصل!».

دفعه نحو الباب، ثم ركله على مؤخرته، وبعد أن خرج عاد ليشبك يديه خلف ظهره، وهو يقول بنبرة ناصحة: «شوفو يا أولادي، أنا ما حبيت أحرجه أكثر من هيك، بس، إن الله نظيف يحب النظافة، وما بصير تيجو عالمدرسة وسخين».

بعد الحصة الثالثة، خرج الأولاد إلى الفسحة، بينما ظل الأستاذ خلف الشباك يراقبهم بعينيّ صقر، وفجأة توجه نحو الحمامات، هناك سمع صوت ضحكات وآهات مكبوتة، ثم دخل

ليُصدم بالمشهد، لكن الصدمة على محسن وخالد كانت أشد، أُسقط في يديهما، وتملكهما الرعب، وبحركات مرتبكة حاولا الوقوف بشكل طبيعي، لكن الركلات والصفعات كانت تنهال عليهما من كل جهة، وبينما كانا مكوّمين فوق بعضهما، صاح فيهما بغضب: «بكره كل واحد يحضر مع وليّ أمره».

صبيحة اليوم التالي، كان الأستاذ يقف أمام الطابور، يحمل بيمينه عصا رفيعة، ويمررها ببطء وتلذذ على يساره، وهو صامت تمامًا، ثم تناول الميكروفون، وأخذ يتنحنح وينظر بترقب إلى الطابور، طال انتظاره، خمس دقائق، عشر... دخل الطلبة إلى صفوفهم، فيما ظل الأستاذ واقفًا مكانه كالمسمار، من شدة غيظه كانت تخرج منه كلمات مسموعة: «وين راحوا المجرمين؟ بفكروا إني رح أنساهم! ما بعرفوا إنه التربية أهم من التعليم!».

الرئيس وآينشتاين

دخل «سامي شُكر الله» ساحة القصر الجمهوري على عجل، وعلى غير عادته مر من أمام الجنود والحراس دون أن يحيّيهم، وتوجه مباشرةً إلى غرفة الرئيس الذي كان ينظر من النافذة ويعقد يديه خلف ظهره، وقد بدا عليه القلق وعلامات طول السهر، وقبل أن يلقي عليه السلام، بادره بالسؤال بصوت مضطرب: خير يا سيادة الرئيس، لماذا استدعيتني على عجل؟ نظر الرئيس في عينيه قليلا، وهو غارق في الصمت لفترة بدت لرئيس الوزراء أطول من المعتاد، ثم طلب منه الجلوس متمتمًا: «تفضل يا دكتور، خير إن شاء الله ما تقلق، ثم عدّل من جلسته واسترسل في الكلام: بتعرف أنا اخترتك لأنك رجل أكاديمي، وتبع علم ونظريات، وأتوقع منك حلولا إبداعية».

«بس إنت احكيلي شو القضية، ورح نلاقي حلول كثيرة بإذن الله».

«ما بخفي عليك يا أبو السعيد، ومثل ما بتعرف احنا في ورطة، والقصة باختصار، إنه «كيري» رح يجنّني، رايح جاي عَ المنطقة، ترك كل العالم وتفضّالنا، ضغوطات وتهديد وإغراءات، ومرة سلام اقتصادي، ومرة سلام مؤقت، ومرة بده قوات أمريكية في الغور، وبعدين ببطّل، ومرة بده يشطب حق العودة، وفي المؤتمر الصحفي بغير حكيُه، عندي بحلف يمين إنه رح يضغط على

نتنياهو، وبس يرجع من عنده بصير أسوأ من الأول... شو أعمل يا سامي؟ كيف بدنا نمرر هالتسوية على خير؟».

«شوف يا سيادة الرئيس... خلينا نلخص المشكلة في نقاط، عشان نقدر نصيغ نظرية للحل».

«لسه بدنا نلخص، ونعيد ونزيد! التسع أشهر قربت تخلص، وبلا فايدة».

«بس انت اسمعني في الأول، وبعدين عصّب زي ما بدك.

«طيب يا سيدي، هات ما عندك، تفضل».

«كيري بده يفرض تسوية على طريقته، نتنياهو بده مفاوضات تستمر طول الحياة، إذا وافقنا عالتسوية الشعب بعمل انتفاضة، وإذا ما وافقنا قدامنا العقوبات والحصار، وساعتها أنا رح أواجه مشكلة رواتب الموظفين، وأنا يا دوب قادر أقنعهم بعدم الزيادة. المفاوضات مبين ما رح تجيب نتيجة، حتى الوفد المدمن عالمفاوضات بطلت عاجبيته واستقال، إذا مددناها كمان سنة جماعتك رح يرفضوا، وإذا رفضنا التمديد رح نصير نحتفل كل سنة بذكرى استشهادك».

«أنا ما بهمني هالحكي، أنا وظيفتي ألاقي حل لهالقضية، اللي عم تتعقد كل يوم أكثر».

«والله يا سيادة الرئيس، مثل هيك معادلة معقدة ما بحلها إلا آينشتاين».

«مش هاظ مات من زمان! وبعدين شو دخل آينشتاين بالسياسة؟».

«أنا بفهّمك، بس طول بالك شوية».

في هذه الأثناء دخل القاعة بعض أعضاء البرلمان، وبعض الوزراء، وجلسوا في أماكنهم، وقد دفعهم الفضول إلى سماع نظرية الدكتور الجديدة، وطبيعة علاقة آينشتاين بالموضوع، الأمر الذي دفع شكر الله للاستفاضة في الشرح.

«يا جماعة، النظرية النسبية إللي حطها آينشتاين، رغم إنها نظرية فيزيائية تتحدث عن الزمان والمكان بمفهوم مادي بحت، إلا أن بعض العلماء فهموها من أبعاد نفسية واجتماعية، وهون مربط الفرس. يعني باختصار شديد، النظرية بتركز على علاقة الإحساس الداخلي للإنسان بظروف المكان والزمان والبيئة السياسية اللي حوله، وهون مفتاح الحل، وخليني أضرب بعض الأمثلة»...

يسود صمت مطبق، فيما «شكر الله» يواصل الشرح:

«كلكم بتعرفوا قصة الزلمة اللي راح يشكي للمختار عن بيته الضيق، فطلب منه المختار أن يسكّن معاه الحمار تبعه جوه البيت، وطبعا الزلمة انجن، بقللك البيت ضيق بتقلّي دخّل الحمار! إلا أن المختار أصر عليه، وطلب منه أن يراجعه بعد أسبوع، وبالفعل سوّى مثل ما طلب المختار، ورجع بعد أسبوع، يشكي من ضيق الحال أكثر، فطلب منه المختار أن يُخرج الحمار من البيت ويرجع بعد أسبوع، ولما نفذ الأمر، أحس بالفرق، وشعر بالارتياح ونسي أنّ بيته ضيق. يعني كل ما في الموضوع هو الإحساس النسبي بالمكان، وعلى هذا الأساس يمكن نحل المعادلة».

الجميع بصوت واحد: كيف؟

«بالنسبة للانتفاضة، ممكن نقنع الناس إنه العنف والثورات ما بتجيب إلا الدمار وخراب البيوت، وخلينا نركز على اللي بصير في سورية والعراق وليبيا، ونقارن حالهم بحالنا، وساعتها بتكوّن إحساس نسبي عند الناس بالارتياح.

الإسرائيليين عشان نطمنهم شوية، بنـزيد التنسيق الأمني، وبنعتقل شوية من المعارضة، حتى يتولد ارتياح نسبي عند الإسرائيليين ويقدمولنا شوية تسهيلات، وهيك بتولد رضا نسبي عند الشعب من جدوى المفاوضات.

الأمريكان، بنوعدهم ما نتوجه للأمم المتحدة، ولا لأي منظمة دولية، وما بنجيب سيرة محكمة الجنايات الدولية ولا غيرها، وهيك رح يشعروا برضا نسبي، وببطلوا يضغطوا علينا لتمديد المفاوضات. وبنخلي الأمور مثل ما هي عبين ما الله يفرجها علينا.

وبالنسبة للموظفين، بنهددهم بتقليص العلاوات، وبعد ما يضربوا كم يوم بتراجع عن كلامي، وهيك بتولد عندهم شعور بالرضا النسبي عن رواتبهم الحالية. ويمكن أعمل نفس الشي بالشعب: برفع أسعار البنزين والدخان والخبز، وبعد ما يحتجوا بتراجع عن القرار، وهيك بتولد عندهم رضا نسبي عن أوضاعهم المعيشية».

«طيب الشعب، فكرك بسكت؟ وشو ممكن يعمل؟»

«هاي والله ما بعرف فيها، ويمكن هون نسبية أينشتاين ما تفيدنا كثير».

«على كل حال، خلينا نجرب، مش خسرانين إشي».

نظر الرئيس في عيني الدكتور وقد شعر بارتياح «نسبي»، ثم قال: «والله ما إنتَ قليل يا آينشتاين».

أمام مجلس الوزراء

يقع مكتبي في الطابق الأول من العمارة المطلّة على بناية مجلس الوزراء بالقرب من دوار محمود درويش، ومن نافذتي الواسعة، أطل بين الفينة والأخرى على الشارع، لأراقب حركة الناس، وموكب رئيس الوزراء، وضيوفه الأجانب، ومسيرات الاحتجاج، واعتصامات نقابات الموظفين والمعلمين والعمّال وأصحاب صالونات الحلاقة...

هذا الصباح وفي طريقي إلى العمل، مررتُ بالقرب من بوابة المجلس، جاءت سيدة أربعينية بصحبة طفليها، ووقفت أمام البوابة، وعلى الفور رفع كلٌ منهم «كرتونة» كتب عليها شعارات ومطالبات معينة.

مباشرة، جاء أحد الحراس بخطى بطيئة، ووقف قبالة السيدة، على ما يبدو أنه لم يكلمها، بل أخذ يقرأ اليافطات، ويهز رأسه، ثم عاد بهدوءٍ إلى مكانه، وتناول جهاز الإرسال ليتحدث مع أحدٍ ما في الداخل.

بعد ربع ساعة، بينما كنت أرقب المشهد من نافذتي، خرج رجلٌ طويلٌ يرتدي بدلةً رمادية ونظارات سوداء، وعلى أذنيه وصلة

سماعة، تقدم مسرعًا نحو العائلة الصغيرة وطلب منها أن ترجع إلى الخلف عشرة أمتار على الأقل، لأن دولة الرئيس على وشك الوصول، قالت له السيدة المحجبة بصوت مرتجف: كل ما أريده دقيقتين لأسلمه رسالة. أجابها بعصبية واستغراب: «معقول؟ بتفكري سيادته فاظيلك؟».

بعد نصف ساعة وصل الموكب: ثلاث دراجات نارية وسيارتا مرسيدس تتقدمان سيارة دفع رباعي ضخمة وفي المؤخرة سيارة إسعاف.

خفف الموكب من سرعته قليلا قبل أن يتجه نحو المدخل، ثم توقفت سيارة الرئيس ثوانٍ معدودات، كان الزجاج معتمًا، لم أعرف إن كان توقف لقراءة اليافطات، أم بسبب وجود «مطب» على المدخل.

مرت ثلاث ساعات، والعائلة تقف مكانها بثبات، وقد أخذت الحرارة ترتفع، والشمس تتوسط السماء، بينما الأولاد يُغطون رؤوسهم بالكراتين، مما يصعّب على المارة قراءتها، بعد قليل أخذت الأم طفلها الأصغر من يده، ومشت به نحو خمسة أمتار، ثم أنزلت بنطلونه وملابسه الداخلية، ليبول على الحائط. دون أن تكترث لنظرات الشرطي وصراخه.

بعد ساعة توقفت سيارة جيب، ونزلت منها سيدة أجنبية، كان واضحا أنها كذلك من ملابسها ولون بشرتها، إنها مراسلة وكالة سي إن إن، وقد عرفت ذلك من شعار الميكروفون، تحدثتْ مع الأم دون مترجم، وباستخدام لغة الإشارات وبعض الكلمات

العربية الركيكة، وهي تستعين بالمصور الذي كان يجيب عنها ويترجم لها.

بعد الظهر كان الحر قد اشتد، واستبدّ التعب بالأولاد، اتكأ الأصغر إلى الحائط وغط في نوم عميق، بينما الثاني كان يتبادل مع أمه حديثًا صامتًا. في هذه الأثناء توقفت سيارة دفع رباعي، ونزل منها رجلٌ ملتحٍ، صارم الوجه، وأخذ يلتقط للعائلة صورًا من زوايا مختلفة، كان حريصًا أن تظهر يافطة رئاسة المجلس في خلفية كل صورة، صوّرَ الطفل وهو نائم، وآثار بوله على الحائط، ثم غادر دون أن يتحدث مع أحد.

بعد قليل جاء بائع الكعك، يجر عربته بتثاقل، وعندما صار أمامهم، أخرج ثلاث كعكات، ووضعها في كيس بلاستيك، وقدمها إلى الأم وفي عينيه نظرة عطف. لم ينبس بحرف، وواصل سيره المتثاقل...

مضى باقي النهار بطيئًا مملاً، ساده صمت طويل، كانت تعكره أحيانًا أصوات الشاحنات والباصات المسرعة وهي تمر من أمام المجلس دون أي اهتمام.

بعد العصر غادرت العائلة المكان مخلّفةً وراءها اليافطات على أمل أن يقرأها أحد المسؤولين. صبيحة اليوم التالي وقفتُ على الشباك منتظرًا قدوم العائلة، وبالفعل لم تتأخر، الأم والأطفال، بثيابهم نفسها، ولكن مع «كرتونة» واحدة جديدة، ثُبّتتْ على ظهرها خشبةٌ طويلة.

هذا اليوم جاء صحافيون كُثر، أولهم مراسل محطة بي بي سي، ثم فوكس نيوز، ثم تلفزيون الأقصى، والقدس، وفلسطين، والجزيرة وحشدٌ من المصورين والمخبرين والفضوليين... كانوا يسألون باستفاضة وحماسة، والأم تجيب بكلمات محدودة مقتضبة، وسط حيرة وذهول الأولاد الذين كانوا ينظرون بقلق واهتمام إلى بداية الشارع، على أمل أن يرجع بائع الكعك...!

على مدى أسبوعين، وأنا أرقب مدخل مجلس الوزراء، المشهد نفسه يتكرر؛ كل صباح تأتي الأم وطفليها، وبعد العصر يغادرون. نشأت صداقةٌ خفية بين العائلة وحراس المدخل الذين صاروا يزودونهم بزجاجات الماء، فيما بائع الكعك لا يتأخر عن موعده، ثلاث كعكات مقابل ابتسامات الأم وطفليها. في هذه الأثناء، كانت الفضائيات تتناقل الخبر العاجل عن طفلٍ اعتاد أن يبول أمام مجلس الوزراء، فيما عقدت الأحزاب والقوى السياسية سلسلة اجتماعاتٍ مطولة لمناقشة الحدث وتداعياته، وأقامت منظماتٌ مدنية أخرى ورشتي عمل: إحداها في «الموفنبك» والثانية في «الجراند بارك»، وقرر المجلس التشريعي إيفاد لجنةٍ إلى مقر مجلس حقوق الإنسان في جنيف، كما تناول الكتّاب الموضوع من كافة جوانبه، وحاز مصور رويتر على جائزة أفضل صورة لهذا العام.

وكما جرت العادة، انقسم الناس في الآراء: فريقٌ يرى أن تصرف العائلة يسيء للوحدة الوطنية، ويضرب الموسم السياحي في البلد. وفريقٌ يرى أن الحكومة المتآمرة هي التي أرسلت العائلة لتُظهر للعالم كم هي ديمقراطية. وفريقٌ يرى أن العائلة مظلومة

ومطالبها عادلة لكن الدول المانحة هي السبب. وفريقٌ يحمل الحكومة المسؤولية، ويطالب بإسقاطها.

بعد أسبوعين، اختفت العائلة، واختفى معها بائع الكعك، ولم يعرف أحد ماذا حلّ بهم... بل، ولم يعد أحدٌ يذكر القصة. في اليوم التالي جاء عامل النظافة يرتدي «أفرهولا» برتقالي اللون، ولولا سماعات «الهيدفون» في أذنيه لظننت أنه أحد الفارين من «جوانتنامو». قلت بفضول: صارلك ساعة بتنظف في مترين! أجاب بتلقائية مدهشة: أنظف المكان من أثر القصائد والخطابات...!

تائه في مدينة

كانت المدينة تطوق ذراعيها مرحّبةً بالقادمين، يؤمّها الناس من كل صوب وحدب. في الأول من حزيران وصلَ مدخلها الجنوبي، فوجده مزدحمًا، السيارات بطيئة للغاية، وبالكاد تقطع في كل ساعة بوصةً واحدة. ترك السيارة في منتصف الطريق، ثم فكك عجلاتها وأفرغها من الهواء، ودسّها في حقيبته غير آبهٍ بحفلة «الزوامير» والمنبهات والشتائم التي انطلقت دفعة واحدة.

واصل المسير، وحيدًا، حتى وصل محطة القطارات، فوجد أعداداً لا حصر لها من البشر. الجميع يركضون محمومين، وفي شتى الاتجاهات، قبل أن يصل القطار بدقائق تكثفت الجموع البشرية فجأة، ثم سارت مندفعةً كنهرٍ فاض بغتة، وحملته دون أدنى اعتراض منه إلى بوابة القطار، وأرغمته على الدخول. وبعد محطتين أنزلته بالطريقة نفسها. لم يتسنَّ له أن يعرف رقم القطار، ولا عنوان المكان الذي وجد نفسه فيه. صوّب ناظريه يمنةً ويسرةً، بهرته الأضواء وانعكاساتها على خد النهر، والنساء الرشيقات، وقد ارتدين ملابس ضيقة فبدين أكثر نحافة، والبنايات التي تعانق الغيوم.

أخذ يقرأ اللافتات المعلقة على كل حائط: «كل ما تحتاجه تحت سقف واحد»، «أمِّن مستقبلك معنا»، «سافر معنا إلى عالم الأحلام»، «تنزيلات حقيقية، لا تضيعوا الفرصة»... شعَر بإثارة غامضة، وباندفاعٍ غامر نحو شيء مجهول، لا يعرف له سببًا.

سأل أحد المارة: أين تقع السينما؟ أجاب: لا أعلم. «طيب، أين هو جامع البلد؟» أيضا لا أعلم. اسمع، في الحقيقة لستُ فنانًا، ولا متديّنًا، فقط أبحث عن حمّام. نظر إليه بإشفاق، ثم أشار إلى عمارةٍ زجاجية ضخمة، وقال: ستجد خلفها سيدة مسنّة، هي ستساعدك.

نظر إلى البناية بارتياب، كانت على يمينه وتحجب عنه الشمس تمامًا، ظل يمشي جوارها دون كلل، وعندما وصل آخرها كان الصيف قد انقضى، ولم يتبقَّ منه سوى الغبار المتراكم فوق النوافذ، أما الشمس فقد توارت خلف غيوم الشتاء. سألته السيدة بحياد: هل تفتش عن عمل، أم تبحث عن منزل، أم تركض خلف فرصة؟ كل شيء موجود في هذه المدينة المجنونة... «بل أبحث عن حمّام...!».

سار طويلا حتى تعب، بعد شهرين من المسير أنهكه التعب، ومع ذلك واصل السير.

بعد ثلاثة أعوام، بدأت تجاعيد الزمن تظهر على وجه المدينة، ثم على رقبتها، عشرات مفترقات الطرق، التي تُفضي إلى مئات الشوارع، المدينة متاهة، في كل يوم كان يموت شارعٌ جديد، وقبل أن يحل الخريف لم يتبقَّ سوى شارعٍ وحيد، طويل جدًا، أحيانا يمتد على استقامة مملة، بلا نهاية، وأحيانًا يتعرج بشكل متهور.

لم يكن أمامه خيار سوى مواصلة المشي، كل المنافذ والشوارع الفرعية المؤدية إليه كانت مغلقة، حتى الأزقة الضيقة، إمّا بأمرٍ من شرطة السير لأن «فخامة الرئيس» سيمر بعد قليل، ولا أحد يعلم متى ينتهي هذا القليل، وإما أغلقتها البلدية للتصليحات، أو احتلها الباعة المتجولون، أو سدها محتجّون على اتساع ثقب الأوزون...!

أحس بالحنق، وبالغضب، وقف على ناصية الرصيف، وهدد المارة دون أن ينظر إليهم: عندما أنتهي من هذه المدينة سأنزل بها أشد العقاب، أما أنتم؛ فسأركلكم على مؤخراتكم.

هطل المطر بشدة، فاختبأ تحت الجسر، بدأت مشاعر اليأس تتسلل إلى شراينه. وهناك على مقعد خشبي استسلم للنعاس، وللبرد، وقبل أن يغفو شاهدَ خلفه مباشرة رجلا طويلا، نزع معطفه وألقاه فوقه بهدوء. ابتسم له: أبي! أين الوعد الذي طردتني من البيت لأجله؟ أشار بذراعه على امتدادها نحو الشمال، وقال له كلمتين فقط، ثم دخل في غيمة من الضباب واختفى بسرعة كما لو أنها ابتلعته. شعر باليتم من جديد، لم يطرق رأسه للحزن هذه المرة، لكن أطرافه كانت ترتجف، نظر من حوله، كانت الأشجار عارية تمامًا.

بدا الأسفلت نظيفًا بعد أن غسله المطر، لكن لونه كالح. أما الرصيف فقد نبتت عليه أعشابٌ خضراء يانعة. دسّ قدميه في حذائه، ثم فتح حقيبته وخبّأ فيها أحلامه وخيباته وأغنياته المفضلة، ثم أخرج الإطارين المطاطيين، وانطلق... من بعيد رأى لافتتين، حثَّ الخطى ليقرأ ما كُتب عليهما، ولما اقترب منهما اتضحت له الصورة، طُبع على الأولى سهمٌ يشير إلى وسط البلد، والثانية عبارة «رافقتكم السلامة»..

صانع الأفراح

لم يتأخر «أبو وديع» عن أيّة حفلةٍ دُعي إليها. يلبّيها مهما كانت ظروفه، ولا يهتم إذا كان صاحب الدعوة رجل أعمال أم «طوبرجيًّا». كل مساء تجده في مطعم شعبي، أو في فندق فاخر، أو في سهرة عرس، يجلس على كرسيه خلف المايكروفون، وبجانبه «أبو عامر الطبّال»، وأحياناً قليلة كان يحظى بفرقةٍ موسيقية كاملة، يحضن عوده، يضبط أوتاره بكل حنيّة، يتنقل من لحن إلى لحن بكل خفة، يحاوره كصديق قديم. عادةً ما يبدأ ببعض الأغاني الشبابية السريعة، ثم ينتقل إلى وديع الصافي وناظم الغزالي وصباح فخري، إلى أن ينهي السهرة بأم كلثوم أو فريد...

على مدى ثلاثين عامًا، يغنّي على المنوال نفسه. لا توجد أغنيةٌ لا يعرفها، أو لحنٌ لا يتقنه. صوته حنونٌ، فيه بحّةٌ حزينة، يبدأ خافتاً نقيًّا، ثم يجري كنهرٍ هادر. لم يره أحد دون ربطة عنق، لديه ثلاث بدلاتٍ رسمية: كحلية وبنية وسوداء، لا يغيرهما صيفًا أم شتاء، الابتسامة الملتصقة على وجهه ذاتها، والتحايا لم تتغير وهو يرسلها بكفيه إلى الحضور.

لا أحد يعرف كيف يختفي فجأة بعد أن تُطفأ أنوار السهرة، وإلى أين يذهب، وماذا يتعشى وكيف ينام، ومتى يرى عائلته؟ لا أحد يعلم إذا ما كان متزوجًا أم لا! هل «وديع» هو ابنه، أم مجرد اسم؟ هل يشجع برشلونة، أم نادي الوحدات! هل يشكو من مرض، هل يحلم بشيء ما! وفي الحقيقة نادرًا ما يطرح عليه أحدٌ أيّ سؤال من هذه الأسئلة الفضولية، كان مغنيَ أفراح بالنسبة إليهم لا أكثر. لا يسأله أحد كيف نمت ليلة البارحة؟ فقط يطلبون منه أغنية لجورج وسوف، أو لنجوى كرم، أو موال عتابا... ثم يدسون في جيبه بضعة دنانير...

قبل سنتين اختفى فجأة مدة شهر كامل، كان حزيران؛ شهر الأعراس، وحفلات التخرج، والسهرات، والليالي الدافئة... قيل إنه سافر في رحلة فنية إلى الولايات المتحدة، وقيل إنه يتعالج من السرطان، وقيل إنه تزوج من شابةٍ عشرينية، وقيل إنه في السجن لتهربه من الضرائب...!

في الأسبوع الأول من تموز عاد إلى حفلاته من جديد، لكنه قرر أن يحصرها في أحد أهم فنادق المدينة. كانت تجاعيد جديدةٌ قد شقت طريقها إلى وجنتيه وجبينه، ومساحاتٌ إضافيةٌ من الشعر الأبيض قد غطت رأسه، وقد بدت على ظهره انحناءةٌ بسيطة، كان بالكاد يبتسم. وقد اختصر الكثير من التحايا التي اعتاد ترديدها. ومع ذلك ظل يغني الأغنيات نفسها، وظل الجمهور يصفق له بحرارة، كان الحاضرون يأكلون المشاوي والأطباق الشهية، ويرقصون ويضحكون...

رغم أن حنجرته لا تتوقف عن الغناء؛ إلا أنه نادرًا ما كان يتكلم، فهو ما إن ينهي السهرة حتى يكون قد هده التعب، فيأوي إلى فراشه كما لو أنه جثة، ولا يصحو قبل الظهر. قبل أسبوع، استيقظ مفزوعًا على صراخ ابنته. كان صوتها مخنوقًا، قالت له بنبرةٍ حزينةٍ مشوبةٍ بالخوف: لقد تعبتُ يا أبي، لم يعد بوسعي أن أتحمل الألم. يبدو أني سألحق بأمي عمّا قريب.

بالأمس، كانت حفلة ضخمة في الصالة الرئيسة التي امتلأت عن آخرها، ولأول مرة في حياته تأخر «أبو وديع» عن موعده أكثر من نصف ساعة، ولشدة دهشة الحضور لم يكن يرتدي بدلته الأثيرة، لا بل إنه لم يكن يحمل عوده، حتى صديقه «أبو عامر» كان يجلس في الخلف كئيبًا دون طبلة. ولم يتوقف مسلسل المفاجآت الغريبة عند ذلك فحسب؛ فقد وقف أمام الحضور ولم يحيِّ أحدًا منه. لم يكن يراهم أصلا، كان ينظر إلى السقف، أو إلى الأفق البعيد، شاردًا تمامًا... أمسك المايكروفون بقوة، وأخذ يصدح بموالٍ حزين. كان صوته هادرًا حزينًا، ويداه ترتجفان. استغرقت «الأوووووف» منه دقائق طويلة، بعدها أخذ يردد بصوتٍ أجشّ مخنوق: لا تتركيني وحيدًا... لا تتركيني وحيدًا...

كان الجمهور صامتا تمامًا، وفي حالة ذهول. بعضهم أخذ يتبرم، ويبدي انزعاجه. وبعضهم كان ينتظر منه البدء بالأغاني الصاخبة. وحدهم عمّال الفندق كانوا يقفون خلف الستارة صفًا واحدًا، وعيونهم تملؤها الدموع...

مذكرات رياضي

أمام ساحة البيت كان الأولاد يلعبون كرة السلة، تحت «سطل أملشن» مفتوح من الأسفل ومثبت على الحائط بقضبان حديدية على ارتفاع مترين. أثناء مروره من الساحة، سمع صديقي القديم «أبو كريم» ابنه وهو يحدث صديقه عن صفقة بيع اللاعب «رونالدو» لنادي «ريال مدريد» بمبلغ خرافي (130) مليون دولار. صعقه الرقم، وضحك في نفسه، فأحبَّ أن يشارك الأولاد ضحكته؛ فقال لهم: هل تعلمون أنني عندما كنت في عمركم تنافس عليّ ناديان من نوادي عمّان؟ ضحكوا بشدة، ولم يصدقوا الخبر، وتساءلوا بفضول كم بلغت الصفقة؟ وعلى الفور تجمع الأولاد من حوله ليسمعوا منه القصة:

في منتصف الثمانينات كنت شابًّا يافعًا، طولي 190 سم، وكنت ألعب كرة السلة مع منتخب المدرسة، أقفز بكل خفةٍ إلى مستوى «الرينغ»، وأسجل في المباراة الواحدة عشرات الأهداف، وبعد أن ذاع صيتي انتسبت إلى نادي صويلح، وفي إحدى بطولات الدوري لاحظني مدرب نادي عمّان، فأُعجب بمهاراتي وحركاتي

الرشيقة، فتحايل عليّ لأوافق على الانضمام إلى ناديه. قدم لي عرضًا مغريًا: سندفع لك أجرة التنقل من صويلح إلى عمان، والبالغة حينها 13 قرشًا، إضافة «لساندويش فلافل» أيام التدريب، و«ساندويش شاورما» أيام المباريات.

قبلتُ العرض، وقلت لنفسي إن نادي عمّان أكبر وأهم من نادي صويلح، وبإمكاني أن أستخدم الباص وأجرته 5 قروش، وأحتفظ بالفرق 8 قروش في الذهاب ومثلها في العودة، أي 16 قرشًا عن كل يوم تدريب، وهو مبلغٌ معقولٌ لطفران مثلي.

لكن المشكلة أن مدرب نادي صويلح تمسك بي، مدّعيًا أنه سيصنع مني «كريم عبد الجبار»، وهكذا فشلت الصفقة. لم أتضايق كثيرًا حينها، وقلت «بعوّض الله»، وفي تلك السنة أُلغي الدوري لأسباب لا أذكرها، وتخرجتُ من التوجيهي بمعدل 67٪ . وفي الأشهر الثلاثة التالية اشتغلت «كونترول باص» على خط عمّان صويلح، وكنت كلما ركب أيّ شابٍ يرتدي بدلةً رياضية أعفيه من الأجرة، حتى اكتشفني السائق، ودفَّعني دينارًا كاملا غرامة، بعد أن اتهمني بالسرقة.

في كلية المجتمع، صرت كابتن الكلية الذي تتناقل الفتيات أخباره، وفي السنة الثانية تورطتُ في قصة حبٍ لفتاة من صفّي، وذات يومٍ مشمس شاهدها عميد الكلية تجلس ملاصقةً لي على مقعدٍ واحد، وهي تقدم لي كأسًا من القهوة، فاستدعاني إلى مكتبه على الفور، ولم أكن أعلم أنها ابنة أخيه، وعندما أخبرته أنني أحبها لم يكتفِ بطردي من مكتبه، بل منعني من المشاركة في جميع أنشطة الكلية.

بعد التخرج، كنت كلما أتقدم بطلب وظيفة يقول لي مدير الشركة: «إنت على هالطول مفروض تشتغل لاعب سلة، مش محاسب...»، وبعد شهور من البطالة، اشتغلت في الدهانات، يعني «طرّيش»، لأن المعلم أراد استغلال طولي في الوصول للسقف دون أن يضطر لشراء «سيبة».

وبلهجة استعراضية واصل «أبو كريم» قصته: «على مدار ثلاث سنوات أحرزت نقابة الدهانين والطريشة بطولة دوري نقابات العمال، وقد نلتُ كأس هداف الدوري مرتين. ولإثبات مهاراته تناول الكرة ووقف بثبات وصوّبَ إلى الهدف، وبعد لحظات رماها بكل قوة لتسقط مباشرة في السطل، فتناثرت بقع الدهان محدثة طرطشة قوية ترددت أصداؤها في جنبات الحي، وغطّت جدران المدينة كلها...!

كزدورة ع الرصيف

لما لاحظ أبو محمد أن وزنه أخذ يزداد من شهرٍ لشهر؛ قرر البدء بنظام حِمية، مع برنامج رياضةٍ يومية. وبالفعل توجه إلى السوق للبحث عن بعض الأنواع الخاصة من الحبوب والفاكهة والشوربات كما أوصى خبراء التغذية، وهناك عثر على بعضها، واستعاض عن الأشياء التي لم يجدها ببعض البدائل المتوفرة. بعد بضعة أيام من المعاناة والجوع بدأ يشعر بالملل، وأخذت تنتابه موجات من الشوق والحنين للوجبات الدسمة، وصار حماسه للموضوع يخفت تدريجيًّا إلى أن عاد إلى سالف عهده، ورجع لمأكولاته الشهية، دون حساباتٍ للسعرات، ولا حرمانٍ لما تشتهيه نفسه.

ومع ذلك، قرر الإبقاء على عادة الرياضة. لكن شقته صغيرة، ولا تتسع لأي جهاز رياضي، وبالكاد يمكنه بداخلها أداء تمارين القرفصة والضغط. وتكررت الحالة؛ فبعد بضعة أيام من التعب والتدريب بدأ يضيق خناقه ويمل؛ فقرر أن ينقل رياضته إلى الخارج؛ أي الركض في الشوارع القريبة.

في اليوم الأول لبس بدلة الرياضة وخرج يهرول في الطريق المجاور، وبعد دقيقتين لمحه صديقٌ قديم لم يره منذ عشر سنوات، فسأله بقلق: «خير أبو محمد، شو في؟» وبعد دقيقة أخرى أوقف جاره سيارته أمامه، وسأله بفضول: إذا مستعجل بوصلك بسيارتي! علمًا أن جاره هذا لم يسبق له أن عرض عليه أية مساعدة، وبالكاد يقول له صباح الخير. وبعد ذلك، ظهر كل معارفه وأصدقائه دفعة واحدة، حتى أنه استغرب من أين أتته هذه الشهرة، وليت الأمر توقف عند السلام والكلام والسؤال عن الصحة؛ فقد أحاطته نظرات الريبة والإشفاق، وانهالت عليه التعليقات من كل جانب: «شكلك ولا إله علاقة بالرياضة! وين مفكر حالك؟ هربان من مين؟».

في اليوم الثاني، أراد استبدال الركض بالمشي، فقرر الخروج بصحبة العائلة؛ يتمشون على مهل، ويتمتعون بشمس العصارى. المشكلة أن الرصيف لا يتسع لهم جميعًا، ما يعني أن نصفهم سيمشي على الإسفلت، والنصف الآخر على الرصيف، شريطة أن يمشوا على شكل طابور حتى لا يسدوا الطريق على المارة، وبما أن طفله الصغير يتفوق بنشاطه على الكثير من فصائل القردة؛ فسيكون عُرضةً للسحق تحت عجلات سيارة مسرعة. ومع ذلك واصل أبو محمد وزوجته السير بأعصابٍ مشدودة، وتحت إلحاح الأبناء توجهوا صوب المتنزّه. أثناء المسير اشترى الأولاد الآيس كريم، أما هو وزوجته فاشتريا كيسين من الترمس، وعند الوصول أحسّوا ببعض الجوع فتناولوا «ساندويشات»، وشربوا العصائر و«الكولا» ثم أقفلوا راجعين.

في اليوم الثالث رغب أن يخرج بصحبة زوجته فقط، ليستنشقا الهواء الطلق، وليتجاذبا أطراف الحديث، تعانقت يداهما كما لو أنهما لا يزالان عاشقين... وخلال «الكزدرة» كانا يضطران بين فينة وأخرى أن يتباعدا عن بعضهما بسبب الازدحام، أو أن يخفضا رأسيهما كلما مرّا تحت شجرة، أو لتغطية أنفيهما كلما اقتربا من حاوية نفايات، أو للتوقف قليلا للاحتماء من عواصف الغبار التي تخلّفها الشاحنات المسرعة، وبسبب الضجيج و«الزوامير» وأصوات «البريكات» لم يتمكنا من متابعة الحديث.

أخيرًا؛ وحتى لا تفسد «الطلعة»، دخلا «كوفي شوب» للاستراحة. شربا وأكلا ثم عادا إلى البيت. وفي طريق العودة اشتهت أم محمد قطعة شوكولاته وأصرت على أن يتقاسماها. وهكذا، ولليوم الثالث يفشل أبو محمد في حميته الرياضية.

في اليوم التالي اقترحت عليه أم محمد أن يتمشيا قرب بيت أهلها، فالحي هادئ هناك، والشوارع نظيفة، والأرصفة واسعة، وبالفعل استقلا «تاكسيّا» ونزلا في أول الشارع، وبعد قرابة الساعة مشيًا على الأقدام وصلا البيت منهكين، استقبلتهما الحماة بكرم غير معهود، وأصرت أن يتناولا العشاء، «عملتلكم مقلوبة مخصوص»، وبعد العشاء الحلويات والمرطبات.

بعد مسلسل الفشل هذا، قرر أبو محمد أن يمارس رياضة المشي منفردًا. لبسَ نظارته الشمسية السوداء على أمل ألا يتعرف إليه أحد، ووضع هاتفه النقال في جيبه، والسماعات في أذنيه، كانت الأغاني تصدح، وهو مسرور ومبتهج. والدماء والموسيقى تتدفقان

في عروقه وتشعرانه بنشاط غير عادي. فجأة رن هاتفه، كانت زوجته على الخط الآخر: «أبو محمد جيب معاك فلافل وخبز من الفرن». وبعد قليل اتصلت مرة ثانية: «إذا بتلاقي ذرة طازة أو بليلة سخنة». وفي اتصال ثالث: «جيبلك بطيخة للعشا... وتنساش الكولا... هاني بدّه شاورما، وهنيّة جاي عبالها بوظة... يعني لازم ترجع بسرعة».

في المساء كان أبو محمد يجلس على أريكته المفضلة في صالة الجلوس في بيته، وحوله أم محمد ومحمد ومريم وحسن وبقية الأبناء وفي يد كل منهم «كيس شبس»، وأمامهم صحن فيه بطيخ، وفي يد أبو محمد «الريموت كونترول» يقلب قنوات التلفزيون باحثًا عن الفضائيات المتخصصة بأشهى الوجبات. وعندما سألته أم محمد عن أخبار «الريجيم» أجابها بسخرية: بلا ريجيم بلا بطيخ...

مندلي

كان صباحًا مشمسًا من شهر أيار، ينذر بصيفٍ قائظ، وقد مضت سبع سنين على بداية الحرب المجنونة مع الجار اللدود، ولم يبقَ بيت في «مندلي»، وهي آخر بلدة على التخوم الشرقية للعراق، إلا وطاله القصف، إلى أن تحولت تلك البلدة الوادعة إلى أكوام من الردم. وكانت قد نزح أهلها عنها منذ سنة الحرب الأولى إلى بلدة «بلدروز»، على بعد ثلاثين ميلا باتجاه الغرب. هذه المرة وعلى غير عادتها؛ تأخرت «سناء» لأكثر من ساعة، فيما كان «فراس» يقلب ناظريه بقلق، تارة إلى ساعته شبه المتوقفة، وتارة إلى آخر الشارع، على أمل أن يلمح طيفها. كان يلاحظ الأعشاب قد نمت بعشوائية في الطرقات، وبعض طيور الحبارى تنتظر عودة الغائبين... أخيرًا أطلت بقامتها الممشوقة، وهي ترتدي تنورة رصاصية وقميصًا أبيض، وقد بدا التعب على محياها.

«فراس»، شاب تركماني في السنة الأخيرة في كلية الآداب، و«سناء» كردية في السنة الثانية في معهد الفنون الجميلة. لكنهما يتحدثان معًا بالعربية، وباللهجة البغدادية. اعتادا أن يأتيا إلى مسقط

رأسيهما نهاية كل أسبوع، يشبكان ذراعيهما وهما يجوبان شوارع البلدة... يغنيان، ويركضان لهوًا ومجونًا، إلى أن يستبد بهما التعب، فيأويان تحت أي سقف، يتطارحان الغرام دون خوف. صحيح أن بيوت البلدة كلها مدمرة، إلا أنه في كل بيت، تقريبًا، غرفة تصلح لعاشقين هاربين من قانون القبيلة.

رغم خوائها؛ كان بعض الأهالي يعودون إليها من حين إلى آخر، يتفقدون بيوتهم المهدمة، يمرون بين القذائف بوجل، يبحثون عن أي شيء: عن جهاز كهربائي يمكن إصلاحه، عن آنية تصلح للطبخ، عن أوراق قديمة، عن وجبة غداء من الذكريات، عن بقايا ظلال توارت بلا سبب، عن صدى صوت مضى عليه زمن طويل، منهم من كان يتفقد حديقته فيسقيها، ويقلم أشجارها، ويقطف بعضًا من برتقالها. وقبل مغيب الشمس يعودون جميعًا إلى حيث ارتحلوا أول الحرب.

– هل صحيح أن البلدة تتحول إلى مدينة أشباح ما إن يهبط الظلام؟ قالت.

– نعم حبيبتي، ولكن، هذا ينطبق على الأرواح المعذبة فقط، حيث يخرج القتلى من مراقدهم، ليكملوا ما بدؤوه، فمن كانت تحمل مكنستها في ساحة البيت حين داهمتها قذيفة تعود لتكنس باقي الساحة، ومن كانت تُعد وجبة الفطور، حين انهال عليهم السقف، تعود لتوقظ أطفالها وتجمعهم حول المائدة، ومن كان يقود سيارته أثناء القصف، يخرج ليلا ويجمع ركابه ويوصلهم إلى حيث يريدون. أما المقابر فتظل على حالها، فقد مات سكانها بسلام، وحظي جميع من فيها بجنازاتٍ مهيبة.

– ولكن، هل يُعقل أنهم خلال كل هذه السنين لم ينجزوا ما بدؤوه؟

– إنهم متواطئون بشكل ما، فهم يتلكؤون في أعمالهم طول الليل، حتى يطلع عليهم النهار، حيث تستعر الحرب من جديد، فيعودون إلى قبورهم.

أحست «سناء» بالرعب من هذه الفكرة، فنظرت في عيني «فراس» لتقرأ فيهما إجابة خبيثة، رهيبة...

– نعم حبيبتي، حينما بدأتِ تنزعين ثيابكِ قبل سنوات بعيدة، باغتتنا رصاصتان. وها نحن نعود عاشقين في كل مساء...

تلمست بيديها خاصرتها، ثم عنقها، ثم مسحت بكفيها وجهَها فوجدت كل شيء مكانه. قالت بنيرة حاسمة: ولكن الوقت نهار، والأشباح تخرج في الليل!

أمسك يدها بحنو، وقال لها: يبدو أن الجوع قد نال منك، تعالي لنجد شيئا نأكله.

على أطراف البلدة، في بناية نصف مدمرة، كان «أبو شهاب» قد استصلح مطعمه القديم ليقدم فيه بعض الكباب والدجاج المشوي وعصير البرتقال لزوار البلدة. كانت على الجدار صورةٌ ضخمة لصدام حسين، وصورة أخرى صغيرة للمطربة «سميرة توفيق». سألته «سناء» بفضول: هل ترى شيئًا غريبًا أثناء نومك في هذا المطعم؟ فقال بصوت مشحون، وعيناه مركزتان نحو المدينة، كما لو أنه يراها للمرّة الأولى، أو يودعها للمرة الأخيرة: للمدن

قلوبٌ تخفق، ولها عطرها المفضل، ولونها المفضل، أحيانا تغدو نزقة، وأحيانا تخبئ نفسها في حقيبة طفل، لكن المدن الجميلة تكره الحرب، لأنها تحولها إلى مستنقع لا تسكنه سوى الضفادع...

وقبل أن يكمل كلامه، كان آخر ما سمعاه دوي انفجار رهيب، ثم ساد صمتٌ مطبق، صمت طويل. وبعد أن أفاقا، نظر كلٌّ منهما إلى وجه الآخر، فوجدا منظرًا مذهلا. كان شَعْر «سناء» الأشقر قد أبيضَّ تمامًا، وقد حفرت التجاعيد خطوطها على وجنتيها، فيما بدت رقبتها مترهلة وجسدها نحيلاً وبالكاد يحملها، أما «فراس» فقد بان كعجوزٍ هرم، هزمته السنون، والفوضى تعم المكان.

في الخارج، كانت قطعانٌ من شذاذ الآفاق، من كل صنف ولون، تملأ السهل وتسد الأفق. أشكالهم غريبة، وكذلك لهجاتهم. دخل مسلحان منهم، وبلهجة آمرة وبكل قسوة، شدَّ الأولُّ «سناء» من شعرها، فكان كمن أمسك بقبضته الهواء. أدخل يده في خاصرتها، فخرجت من الجهة الثانية، حملها بكل خفة، ولوح بها حتى كادت تطير، ثم شد وثاقها إلى جذع نخلة، وانهال عليها بالسوط، فكان ينفذ منها ليجلد الشجرة، وهي لا تصرخ، على عكس النخلة التي بكت خوفًا وحرقة. أخيرًا، أحاط عنقها بحبلٍ غليظ، ورفعها إلى الأعلى فيما كانت تنظر إلى السماء وتبتسم، وهي تسمع من حولها صيحات التكبير والتهليل.

بعد الظهر، كانت جثتاهما تتدليان وتتمايلان مع الريح، ثم اختفى ظلهما فجأة، تبادلا النظرات، قال «فراس»: سنخرج نهاية كل أسبوع لنكمل ما بدأناه.

تمثال في صالة الترانزيت

قبل أكثر من ستة عقود، وبطريقة تقليدية، تقدم «غسان» لخطبة ابنة عمه. وكالعادة، وافق أهلها، ومضت الأمور دون معيقات. غادر البلاد بعد الخطوبة بوقتٍ قصير، على أن تتبعه خطيبته بعد أن يستقر هناك. وبالفعل بعد أسبوع، كانت «أحلام» تطأ بقدميها لأول مرة مطار الملكة علياء الدولي، وقفت تنظر بانبهار، وتسأل المارة بقلق، وتفتش في لوحة الإعلانات المضيئة عن موعد الطائرة المتجهة إلى «فنزويلا»... أرضٌ بِكر، مليئة بالأحلام والفرص... هكذا قال لها «غسان»، مضيفًا: ستجدينني هناك في انتظارك.

ما إن أقلعت الطائرة حتى أحست بقلبها يخفق كالطبل، كما لو أنه يصارع يدًا امتدت فجأة وأرادت خلعه. بدأت أوصالها ترتجف، ثم تتشنج. أعطتها المضيفة حبة مسكن؛ فاستسلمت لنعاسها، إلى أن وجدت نفسها في صالة «الترانزيت» في مطار «هيثرو»... أمامها ثلاث ساعات لترتاح قليلا وتتسوق ثم تنتقل إلى الطائرة الثانية التي ستحملها على أكتاف السماء أربع عشرة ساعةً متواصلة. كانت أمها قد أعطتها معطفًا سميكًا وهي تقول: «بلاد الغربة موت سكعة يمّا».

حملت حقيبتها وسارت في الممر الطويل، وهي ترتجف من الخوف والبرد، لم تصدق أن البرد يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة، مشت ببطء وتثاقل، وفجأة هبت عاصفة ثلجية أدت إلى انقطاع الكهرباء، زاد ارتجافها، وهي تكابد صقيعًا لم تعهده من قبل... بدأت أطرافها تتجمد، رفعت يدها اليسرى كما لو أنها تستنجد بشخص ما، فيما ظلت يدها اليمنى تحمل حقيبتها وهي ممدودةٌ للخلف ورجلاها في وضع معاكس، قدمها اليمنى مرفوعة لم تلامس الأرض بعد، في خطوة غير مكتملة، وخلال ثوانٍ قليلة كانت قد تجمدت بالكامل.

صبيحة اليوم التالي، لاحظ عمّال المطار وجود تمثالٍ جديد لامرأة كاملة الأنوثة، في غاية الجمال، وبالحجم الطبيعي. لم يصدقوا أن فنانًا يمكن له أن يبدع مثل هذه التحفة. جاء مدير المطار ليراها بنفسه، قال لا بد أن بلدًا صديقًا أهدانا إياها. أمر بنقلها إلى الصالة الرئيسية. في البداية ذُهلت «أحلام» بما تراه من حولها، مجموعة من العمال يحملونها بكل خفة، ولا تدري إلى أين يمضون بها، أرادت أن تصرخ، أن تركلهم برجلها، أن تلفت انتباههم بأية طريقة أنها حيةٌ ترزق، ولكن دون جدوى. كانت دماؤها قد تجمدت، تعابير وجهها ثابتة كما لو أنها قُدت من صخر، صرخاتها مخنوقة لا تغادر صدرها...

مضى على وجودها ثلاثة أيام، تحوّل إحساسها بالبرد إلى شعور بالخوف والإنكار لما يحدث لها، ذرفت دمعتين، نزلتا على خدها دافئتين، فأذابتا الجليد في طريقهما... ثم تبلورتا كلؤلؤتين نادرتين. تنبّه فني الصيانة للأمر، فجاء بريشته وصبغ دموعها

بالأزرق الفاتح. وعاد إلى الخلف خطوتين يتفحص تناسق الألوان. وقال: بالفعل هكذا أجمل. تجمع السياح والمسافرون لالتقاط صورة تذكارية مع التمثال الدامع...

في الأسابيع التالية بدأ خوفها يتبدد شيئًا فشيئًا ليحل بدلا منه إحساسٌ قاتل بالحنين، ومع الوقت اعتاد الناس على وجودها، حتى أن عدد الذين يلتقطون صورًا معها أخذ يتناقص بالتدريج، وأحيانا كانت تمضي أيامٌ وليالٍ دون أن يقترب منها أحد، ولو من باب الفضول، الأمر الذي فاقم إحساسها بالملل والضجر. وحتى هي التي كانت مبهورة بأضواء المطار، وأعداد المسافرين، وتنوع أشكالهم؛ أخذت تتأقلم مع الوضع، ولم تعد تأبه لحركة المسافرين من حولها...

أشد ما آلمها، وما كان يخنقها أن أهلها لم يسألوا عنها، ولم يعثر عليها أحد حتى الآن، وطالما تساءلت بِحيرةٍ: ألم يخطر ببال أحدهم أن يفتش عني في هذا المطار اللعين؟ حتى غسان... لو كلف نفسه عناء التفكير لوجدني بسهولة، مسمّرة في مكاني منذ أشهر. هل كانت وعوده كاذبة؟ هل انتظرني بالفعل في «كراكاس»؟ أظن أنه تزوج من غيري، ولديه الآن نصف دزينة من الأولاد...!

بعد مضي سنوات على تجمدها، أخذ شكلها يتغير، التجاعيد تسللت إلى وجهها، وألوانها بدأت تبهت. قلقت إدارة المطار على مصير التمثال وخشيت عليه أن يبلى، إلى أن جاء رسام عابر، وطلاه باللون البرونزي، فقررت الإدارة أن يتم طلاؤه كل سنة باللون نفسه، أو بدرجة أقل أو أكثر حسب ما يراه الرسامون. كانت الأصباغ تخنقها، وتحاصرها. وتتركها في حيرة من أمرها، وذات مرة

حاولت أن تخرمش الرسام، فشد على معصمها إلى أن سال دمها. بقدر ألمها فرحت، واستبشرت خيراً؛ بأن الرسام سيتنبه إلى دمها، ويقتنع بأنها إنسانة حية، لكنه بدلا من ذلك قرر أن يصبغها كلها بالأحمر القاني.

مرّت عليها سنوات طويلة، وهي تنتظر، وتراقب، وتتأمل وجوه الناس من حولها. آلاف البشر، من مئات الجنسيات، بيض وسود، صغار وكبار، طلبة ورجال أعمال... الكل في حركة دؤوبة، يأتون من كل بقاع الأرض، يقضون سويعات قليلة، ثم توزعهم الطائرات إلى مدن العالم. الأضواء هنا لا تنطفئ، حتى أنها لم تعد تميز الليل من النهار. مغادرون وقادمون. قصص النجاح والخيبات، وحكايات الغدر والألم وعذابات الناس تختصرها لحظات اللقاء والوداع، كانت تقرؤها في عيونهم بسهولة، بعضهم يبكي في وداع حبيب سيسافر، وبعضهم يبكي فرحًا لرؤية حبيبٍ طال غيابه. كانت تتعاطف بشكل خاص مع أولئك الذين يغادرون دون أن يودعهم أحد، أو يأتون ولا يجدون من يفرح لمجيئهم.

كانت تتسلى بقصص المسافرين، تسمع أحاديثهم بحيادية، تستغرب من أسباب صراخهم، ومن تعجلهم المحموم، ومن قلقهم غير المبرر، لكن أشد ما كان يدهشها تغير أشكالهم من سنة إلى أخرى، تغير ملابسهم، تسريحاتهم، طريقتهم في التعبير، الأشياء التي يحملونها بين أيديهم، فتنظر إلى نفسها بإشفاق، فستانها نفسه الذي خرجت به قبل زمن بعيد، شعرها الذي وضعوا لها بدلا منه باروكة بعد أن تساقط، اعتادوا تبديل لونها كل سنة، بحسب لون

جسمها. أمّا الملابس التي في حقيبتها فلا شك أنها تلفت. ومع ذلك؛ فإن الشيء الوحيد الذي كان يعزيها، أن الجميع من حولها يكبر، أما هي فما زالت شابة، في مقتبل العمر!

اعتادت اختلاس النظر في مرايا المسافرين، كلما جاء أحدهم ليلتقط لنفسه صورة معها، فلا تصدق أن شكلها لم يعد كما كان. تسألهم واحدًا واحدًا: ألا يحمل أحدكم مرآة للروح، أشتاق لرؤية نفسي، اشتقت إلى الشمس، يسمعونها ولا يصدقون. ويمضون في طريقهم غير آبهين.

في غمرة أحزانها تلك، أدركت أن الزمان قد نسيها؛ تذكرت أباها وترحّمت على روحه، تذكرت معطف أمها، وعود غسان، صديقاتها، شجرة التوت الكبيرة، تساءلت بحرقة: من منهم مات، ومن على قيد الحياة؟ هل سيعرفني غسان إذا مر مصادفة من أمامي، هل سيسمع صرخاتي الدفينة، هل سَيَشْتَمُّ عطري الأثير؟ ربما بعد كل هذي السنين مات وشبع موتًا. قد يمر ابنه الأوسط، أو حفيده الأخير. هل سيحبني كما أحبني غسان، وهل سيكرر وعوده؟ لكني لا أصلح له، حتى لو بدوت لنفسي شابة.

تعبت «أحلام» من الوقوف طويلا بنصف خطوة، على قدم واحدة، تعبت من ترددها، من حيرتها أي طريق ستسلك إذا عادت للحياة، تعبت من خوفها، ومن الانتظار، ومن إدارة ظهرها للوقت، قررت أن تنهض، لكن إدارة المطار لاحظت أن التمثال على وشك السقوط، فقررت أن تسنده إلى الحائط، أو على عامود خشبي، وأن تثبته بالبراغي والمسامير.

أرعبتها الفكرة تمامًا، يا إلهي! سيدقون المسامير في أطرافي، سأختبر آلام الصليب، عاشت ساعات من الذعر. وفي المساء نفسه، سمعت عبر مكبرات الصوت أن طائرة قادمة من مدينتها ستصل المطار غدًا قبل الظهر، ربما تحمل بعضًا من أهلها. ولأول مرة منذ زمن سحيق نامت أحلام ليلةً طويلة وهي تنتظر بقلقٍ مرعب مشوب بالأمل!

استعجال

أول أسبوع من دخولها كلية العلوم، وفي مختبر الأحياء الأول، بدأ الأستاذ يشرح للطلبة كيفية تشريح خلية البصل، مؤكدًا على أهمية الانتباه له، ومتابعة شرحه، وسؤاله عن أي شيء لم يفهموه، ثم طلب منهم أن يرسموا ما يرونه تحت المجهر، منوّهًا لاحتمالية أن يكتشف أي طالب منهم ما غفل عنه كبار العلماء. فما كان منها إلا أن أمسكت بدفتي المجهر، وراحت تحركهما بأصابعها ذات اليمين وذات الشمال، ومن الأعلى إلى الأسفل، مرارًا وتكرارًا، تبحث وتطيل النظر، وترسم على دفترها كل ما تراه بكل عناية وتركيز.

بعد ساعة أو أقل قليلا، أنهى الطلبة واجبهم، وانصرفوا إلى عوالمهم، فيما ظلت هي على مقعدها، تعيد الرسم مرة ومرة، وعندما انتهت، سلمت ورقتها للأستاذ وابتسامةٌ عريضةٌ على شفتيها. عندما أوت إلى النوم ذلك المساء كانت أحلام المجد والشهرة تراودها، تخيلت صورتها تتصدر الصفحات الأولى لجرائد الصباح، والإذاعات تتسابق لإجراء مقابلة معها، وأستاذها يرشحها لنيل جائزة ما.

في الصباح، وجدت كل شيء كما تركته بالأمس؛ نظرات أمها المحايدة نفسها، وكلماتها لم تتغير، وتحيات الصباح البليدة، استغربت بعض الشيء، لكنها ظلت صامتة، ولم تفقد الأمل.

راحت إلى جامعتها وهي على ثقة أن أستاذها قد انتبه لرسمها، ولاكتشافها الجديد، وأنه على الأكثر ينتظرها الآن عند البوابة الرئيسية. ظلّتْ طول الطريق تتوقع سيل المكالمات ينهال عليها، لكن هاتفها ظل باردًا، كما لو أنه قطعة ثلج، أحست أن الطريق أطول من المعتاد، وعندما وصلت لم تجد من ينتظرها، ولا حتى من ينظر إليها.

بدأ الإحباط يتسرب إليها، لم تنتبه إلى زملائها وهم يمرون بجانبها، وازدادت حركاتها عصبية. توجهت مباشرة إلى غرفة الأستاذ، وما إن وصلتْ إليه حتى رمقته بنظرة كلها تساؤل وحيرة، وفي فمها كلام كثير.. لكنها كتمت غيظها، وخرجت لا تلوي على شيء.

مجرد تشابه

توقف القطار في محطة «بروكسل» الوسطى، ساعتان قبل طلوع الشمس في يومٍ تشريني بارد، غيوم كثيفة تحجب السماء، رفعتُ ياقة الجاكيت، لأغطي رقبتي اتقاء للبرد، ومشيت مسرعًا أجـرُّ حقيبتي. وكما أفعل في كل مدينة أزورها للمرة الأولى ركبتُ «التاكسي» وأعطيت السائق العنوان، وبعد دقائق وصلت الفندق في حي «ماري جاكمان»، وخلال ساعة كنت قد رتبت ملابسي في الخزانة، وأخذت حمامًا ساخنًا، وخرجت أتمشى.

في الساحة المركزية، جلست إلى طاولة على الرصيف في مقهى كان يبدو من زبائنه القليلين أنه من النوع الراقي، المكان هادئ تمامًا، لا يكسر صمته سوى أصوات سيارات قليلة وحوارات متقطعة لمجموعة شبان يجلسون قبالتي. تناولتُ وجبة فطور خفيفة، وبينما كنت أشرب القهوة وأتأمل المارين وقد أوضحتْ الشمسُ معالم المدينة، تفاجأت أنها تشبه معظم المدن الأوروبية. وسط البلد، مقاهٍ على الشارع، كاتدرائيات عتيقة، أبنية تعود لأواسط القرن التاسع عشر، أكثرها لا يتجاوز الثلاث طبقات، واجهاتها تجمع بين

الخرسانة القديمة والألواح الخشبية بألوانها المتعددة، الوجوه متكررة والنظام ذاته. تذكرت مقولة لصديق جاب الكثير من مدن العالم «يكفي أن تزور مدينة أوروبية واحدة لتقول إنك زرت أوروبا كلها»... لكني أؤمن أن لكل مدينةٍ روحها التي لا تشبه غيرها، فمثلا بروكسل بلا نهر ولا بحر، لكنها تبدو مدينة ملكية بامتياز.

دفعني البرد لأن أنتقل إلى صالة المقهى الداخلية، اخترت طاولةً فارغة مطلة على الشارع، وطلبتُ قهوة بالحليب، وجلست أنتظر شيئًا غامضًا لا أعرف ما هو بالضبط، وإذ بسيدة أنيقة ترتدي معطفًا بنيًّا تدخل المقهى على مهل، وتجلس على بعد طاولتين مني، صدمتني المفاجأة في بداية الأمر، وأخذتني الرهبة، حتى كاد الدم يتجمد في عروقي. يا إلهي ها هي ليلى تُبعث من جديد، هل هذا معقول! إذا لم تكن هي، هل يمكن أن يكون التشابه إلى هذا الحد؟ أتراها صورة مجسمة لها؟ هي بنفسها؛ «تدويرة» الوجه، لون البشرة، العيون العسلية، الشعر الكستنائي القصير، القوام الممشوق، الاهتمام الزائد بتناسق الألوان، الأناقة في تناول المشروب! بالتأكيد لو اقتربت منها أكثر سأجد عناصر تشابهٍ مشتركة أخرى.

بقيتُ أحملق فيها لدقائق طويلة، دون أن تنتبه لي. كانت تتحدث عبر الهاتف النقال باللغة الفلمنكية، وتبدو سيدة مجتمع من الطبقة المخملية. ترددتُ قليلا قبل أن أكلمها، خشيت أن تصدني، ففضّلت تأمّلها أطول فترة ممكنة، لأعيش حلمًا يراودني منذ سنين، منذ أن غادرتنا ليلى دون وداع. أخيرًا، وقفتُ أمامها بهدوء مصطنع، ورجوتها أن تسمح لي بالجلوس، فوافقتْ على الفور.

اسمها لينا، يعني تتشابه مع ليلى بثلاثة حروف من أصل أربعة، وهي أيضًا من برج السرطان، إذن، لا بد أن أقع في حبها، وحتما ستحبني بجنون. هي من يافا، أهلها هاجروا إلى بلجيكا قبل زمن بعيد، تتحدث عربيةً ركيكةً مطعمةً بكلمات إنجليزية، ليلى أيضًا كانت تكثر من استخدام الإنجليزية في حديثها، لكن ليلى من الرملة، ولم تغادر فلسطين قط.

بدأت أتحدث معها كما لو أني أعرفها منذ كانت طفلة، وأحيانًا أنسى نفسي وأتدخل في أدق التفاصيل، فتستغرب مني كيف عرفت تلك المعلومات، لكنها لم تعترض، أخذتنا الأحاديث والضحكات وتبادلنا العناوين، كانت سعادتي لا توصف، وقد فاض طوفان من الذكريات دفعة واحدة، أحسست كما لو أني أغرق في الماضي الجميل، وأُولد من جديد، واتفقنا أن نلتقي كل يوم طول فترة إقامتي القصيرة في بروكسل.

في السابعة مساء كانت تدق باب غرفتي، رحبتُ بها بحرارة، دخلت بثقة، علّقتْ معطفها على المشجب، وجلسَتْ باسترخاء، كان عطرها باريسيًّا باذخًا، أما ليلى فكان عطرها يعبق برائحة النظافة والرغبة الغامضة. قلتُ ربما لن تفهم معلقة امرئ القيس، فأهديتها ديوان نزار قباني، لكنها لا تحب الشعر.

حاولتُ أن أحبّبها بالأغاني العربية، فأسمعتها وردة الجزائرية وهاني شاكر، لكنها كانت تفضل أغاني الراب. حدثتها عن عبد الرحمن منيف ونجيب محفوظ، فقالت هل تريدني أن أضمهم إلى قائمة الأصدقاء على الفيسبوك؟ حدثتها عن مخيم جنين، فحدثتني

عن حي سوهو في لندن. دعوتها إلى مطعم لبناني يقدم الدوالي والمحاشي لكنها طلبت لازانيا. أمسكت يدها برفق، فوجدتها باردة.

مع كل تشابه شكلي كنتُ أجد فارقًا في الروح، فبعد أن تأملت رقبتها وجدتُ الشامة نفسها، لكني وجدت شخصيتها واقعية وصاخبة وتحب زحمة المدن الكبيرة، ليلى كانت حالمة ووادعة، وتحب أجواء الريف.

هل أحببتها بالفعل، وبهذه السرعة؟ أم أنني توهمت ذلك، وأقنعتُ نفسي بهذا الوهم اللذيذ! وماذا بشأنها؟ هل رأتني شبيه فارس أحلامها الذي انتظرته طويلا؟ أم نسخة عن حبيبها الذي مات في حادث سيارة قبل سنتين؟ هل يكفي التشابه لتأسيس حب حقيقي؟ لماذا لا نمضي في التجربة إلى آخرها، دون أن نخضع كل شيء للمنطق؟ سأحتاج ليومين لأصارحها بحبي، أما هي فقد تحتاج لسنة على الأقل حتى تقبل بي. وربما ساعتين، من يدري؟

بعد ساعة كانت منفضتي قد امتلأت بالسجائر، ومعظم الزبائن غادروا إلى أعمالهم، والطاولة التي كانت تجلس عليها السيدة ذات المعطف البني فارغة تمامًا. كأنها خيط دخان ذاب في الفضاء مرة واحد وإلى الأبد. جاء النادل بالحساب، وعندما رأى الدمع في عيني سألني بتلعثم: هل فقدت شيئًا مهما يا أستاذ؟ أجبته بنفس التلعثم: لا شيء، مجرد حادث تشابه، أودى بقدرتي على الحلم. ثم قلت في نفسي: سأعتذر منك حبيبتي للمرة الألف، فليس في هذه المدينة من يشبهك، ولا في أيّة مدينة أخرى...!

نملتان

الزنزانة رقم 24 في سجن المخابرات المركزية، فيها وقفتُ أسفل الطاقة العلوية أترقبُّ طلوع شمس اليوم الحادي والعشرين بعد المئة، كان قد مضى عليّ أكثر من ثلاثة شهور لم ألتقِ فيها آدميًّا، كان آخر من رأيته هو المحقق أبو السعود، الذي طالما حاول أن يكون لطيفًا معي، إلا أني كنتُ ألاحظ وراء ابتسامته المصطنعة صفًّا من الجنود.

خلال تلك الليالي الطويلة، كدتُ أنسى أنَّ عالمًا كاملا خلف تلك النافذة الصغيرة، كان ينتابني إحساس بين الحين والآخر أن العالم كله عبارة عن ستين بلاطة تغطي أرضية الزنزانة، كنت أذرعها مئات المرات يوميًّا، جيئة وذهابًا، ثم أجلس أتأمل نقوشها، وأتخيلها وجوها لأناس أعرفهم... كنتُ لشدة وحدتي أتوق لسماع أي صوت، لرؤية أي مخلوق، حتى لو كانت بعوضة، فلا شيء يقتل كالصمت المطبق.

صبيحة ذلك اليوم، وبعد ساعات مملة من الهدوء المروع، فجأة لمحتُ نملة تدخل من تحت الباب، بعد ثوانٍ قليلة تبعتها نملة

أخرى، كانتا تمشيان بانتظام بينهما خمسة سنتمترات بالضبط، تبعتهما بعيني، واصلتا المسير بخط ثابت نحو طبق الطعام الفارغ الذي أخفيته عن الحارس، لا أذكر الآن لماذا أخفيته، وماذا كنت سأفعل به؟

أمضت النملتان قرابة الدقيقة داخل الطبق ثم تابعتا المسير نحو النافذة، بعد نحو نصف ساعة كانتا قد اختفيتا تمامًا.

في اليوم التالي، عادت النملتان من المكان نفسه، عرّجتا على الطبق، هذه المرة وجدتا بقايا إفطاري، ثم خرجتا عبر النافذة. صار المشهد يتكرر كل يوم، وأنا أتسلى به، وأتعمد ترك ما يكفيهما من الفتات.

غابت النملتان قرابة الأسبوع، وهو زمن طويل بالنسبة لنملة، انتظرتهما بقلق، صرت أزيد من الفتات، وأضع فيه بعض السكر لأغريهما بالعودة، وأقول في نفسي لمَ سيأتي أيّ مخلوق إلى هذه الزنزانة الموحشة؟ لو كنت مكانهما لما عدت أبدًا، لخرجتُ إلى الغابة، أو صعدتُ إلى أعلى شجرة في الحقل.

في اليوم الثامن، ومن ذات المكان والتوقيت تمامًا ظهرت النملتان؛ كان سروري بهما بالغًا، دعوتهما للبقاء حتى الغداء. وبالفعل هذه المرة تجولتا في كل ركن من أنحاء الزنزانة، تحاورنا معًا، وفتحنا مواضيع كثيرة، أقنعتهما أن للنمل أجنحة، وظلّتا إلى ما بعد العصر بقليل، ثم خرجتا تحمل كل واحدة منهما حبة أرز. استغرق وصولهما إلى النافذة العلوية أكثر من ساعتين، وحسب النظرية النسبية؛ تعادل هذه المسافة سفر إنسان من الحجاز إلى الشام... وعند حافة النافذة سمعتهما تتجادلان:

الأولى: سئمت هذا المسير المرهق، وأنا أنوء بحملي كل يوم.

الثانية: سيغضب منا الملك لو تأخرنا.

استغربت؛ ليس لأن صوتهما كان عاليًا وعصبيًّا على غير عادة النمل؛ بل لأنهما خافتا من الملك! وحسب خبرتي النملية فإن للنمل ملكةً، وليس ملكاً! وهنا بدأت أسأل نفسي: هل تدركان أن هذا المكان اسمه زنزانة، وأن الخروج منها أشبه بالمستحيل؟ هل هما صديقتان، أم مجرد مجندتين في عشيرةٍ واحدة، أم هما زوجان؟ كان يصعب معرفة ذلك. انتابني شعورٌ بالضيق، فقد أدركت أنهما إذا خرجتا هذه المرة لن تعودا أبدًا، وستتركانني للوحدة من جديد.

بعد بضعة أيام، سألتُ الحارس، كانت فيه بقايا طيبة: هل رأيت نملتين تتمشيان في الممر؟ أجاب دون أي اندهاش من السؤال: بالطبع، إنهما عند جارك، في الزنزانة المجاورة، ألا تعرف أن السجين «25» يربي تحت سريره مدينة من النمل؟

السجين «25» مضى على وجوده هنا سنوات طويلة، هو نفسه يجهل متى أتى، وما هي تهمته، وليس لديه أمل بالخروج، لا يعرف أحدٌ اسمه، حتى هو نسي اسمه، لمحتهُ مرةً واحدة يخرج من الحمام، كان شكله غريبًا كما لو أنه آتٍ من الزمن المفقود، مشيته مضطربة ونظراته زائغة. طرقتُ على جداره لأسأله عن مصير النملتين. أجاب بفتور: قتلتهما. سألته بغضب واستنكار: لماذا تقتل نفسا زكية أيها السجين؟ أجاب بحماسة: تصور أن النملة الأولى أرادت أن تتمرد، بحجة أنها ملّت من هذه العيشة، وأنها كانت تنوي الهرب، أما الثانية فكانت تتستر عليها!

لأسابيع عديدة، وعند كل مساء، كنت أرى النملتين، تطلان عليَّ من النافذة، وقد نمت على كتفيهما أجنحة، تلوحان لي بابتسامة غامضة ثم تختفيان، كنت أتوقع أن سربًا كاملا من النمل سيأتي لزيارتي عمّا قريب؛ لأعلمه الطيران...!

الحصان الذي خذلته روحه

للخيول، مهما كان لونها، قلبٌ أبيض، وذاكرة تتسع لحكايات كل عشبةٍ في السهول الفسيحة، وعيون تدمع كلما جُرحت روحها. هذا ما أكده «البارع» طول سنينه الثلاثين...

قبل سنوات بعيدة، في يوم تشريني غادِر؛ بدأ مشمسًا وانتهى بأمطار غزيرة، كان جدّه، الذي حمل منه اسمه، قد خرج لحراثة الأرض. عند المساء ربط حماره المنهك بجذع زيتونةٍ هرمة. تواصلَ المطرُ أيامًا عديدة، حتى أنه نسي أين ربط حماره، في ذلك الشتاء القارص لم يخرج أحدٌ للحقل، وبعد انتهاء «الأربعينية» وَجد الرعاةُ هيكلا عظميًّا لحمارٍ تحيط به دائرة ترابية جرداء.

ظلت هذه القصة تؤرق الطفل لأشهرٍ عديدة. كانت الأسئلة تنهال عليه كالكوابيس: هل مات الحمار من شدة البرد؛ أم من الجوع، ولماذا لم يقطع الحبل بأسنانه لينجو؟ لو كان حصانًا قويا لخلع الشجرة من جذورها بدل قضم جذور العشب في محاولة يائسة منه للبقاء. وبسبب استسلام الحمار لموت مؤكد دون أدنى مقاومة، نما في قلب «عوض» حقدٌ على جنس الحمير، وصار مولعًا بالخيول.

ما إن يأوي الطفل إلى فراشه آخر كل ليلة حتى يمتطي صهوة جواده الأسود، ويسابق به الريح، وعندما يهدّه التعب يخبئ جواده تحت اللحاف، وفي الصباح ينفض عن بدنه غبار الحلم. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى جلب له والده حلمه. تسوية دينٍ قديم مقابل مهر صغير؛ لونه رمادي داكن، على ناصيته وفوق سنابكه بقع بيضاء ناصعة، أما قوامه فممشوق، وعيناه واسعتان سوداوان، وله ملمس كالحرير، عنقه طويلة متحررة، يكسوها شعر ناعم يتطاير مع أقل نسمة. باختصار جماله يخلب الألباب. كانت فرحة «عوض» به لا توصف.

كان «عوض» يصحو باكرًا على صهيل «البارع»، يربّت على كتفيه، يتبادلان النظرات فينصهران معًا، يمتطيه دون سرج، يبدآن الركض خببًا، ثم عدْوًا، وأخيرًا يطلق لرسنه العنان. يركضان على غير اتجاه محدد، يركضان بجنون، عند الضحى يجدان ظل شجرة؛ فيأويان إليها والعرق يتصبب منهما.

كبر عوض والبارع معًا، كلٌّ منهما على طريقته؛ البارع صار حصانًا مفتول العضلات، تتدفق الدماء في عروقه حرةً منسابة، لا يسبقه حصانٌ آخر، ولا يراه أحد دون أن يعجب به، ولا يشبع شغفه سوى المروج المفتوحة. تزوج عوض، وأنجب أولادًا كثيرين، وصار عصبيًّا ونزقًا، وأخذت روحه تنسل من بين أصابعه شيئًا فشيئًا. فلم يعد ذاك الفتى الطيب، الذي يطعم حصانه بيده، ويغفو على ظهره إذا ضاقت به الدنيا، ليحمله بين الغيوم.

في ذلك المساء العصيب، عاد عوض إلى بيته يحمل على كاهله تعب قبيلة. أرادت «عليّة» أن تنسيه همومه، أعدت له العشاء، ثم غيّبت أطفالها، وفي أقل من ساعة خرجت من الحمّام ندية معطرة، جلست قبالته تكشف عن كتفيها وأجزاء من صدرها، ثم مدت ساقيها بنعومة، لكنها عبثًا حاولت، فرائحة المدينة كانت تزكم أنفه. أخيرًا خرج من غرفته يجر خيبته.

في اليوم التالي خرج عوض مع حصانه إلى السوق، وهناك افترقا. عاد عوض وحيدًا، أما البارع فظن أن من يجره سيعيده إلى حظيرته غدًا، أو بعد غد. امتدت به الأيام دون جدوى، انتظر حتى امتلأ قلبه بالضباب.

مسكين هذا «البارع»، لم يكن يدري ما يخبئ له القدر، وأنّ أياماً حالكةً تنتظره، كان مالكه الجديد يعمل في النقليات والتجارة، لا يعرف سلالات الخيول وفضائلها، والأنكى من ذلك: كان بلا قلب، استخدمه في البداية لحمل البضائع، فكانت تقع عن ظهره، ثم في حراثة الأرض. وذات مرة في أرضٍ جدباء، داس على زجاجة، فشقت ساقه. وعندما ربطه لجر عربة، أحس بالإهانة، ورفض أن يتزحزح من مكانه. أخذ سيده يجلده بالسوط؛ فصار يرد برفسةٍ من رجليه الخلفيتين. لكنه كان محكم الوثاق بالعربة. ومع اشتداد الجلد وتوالي الرفسات؛ كُسرت رجله.

تنقل «البارع» من مزرعة إلى أخرى، ومن بائع إلى آخر. جاعَ وهزل، وتقوس ظهره، وصار هرمًا، حتى بريق عينيه خبا. وذات نهار غامض، بينما كان معروضًا للبيع في سوق الثلاثاء المخصص

للماشية، سمع صوتًا مألوفًا، البعض قال إنه شمّ رائحته أولا. إنه عوض؛ صديقه القديم، ولأول مرة منذ سنين طويلة ابتسم «البارع». ضحك بأعلى صوته، أخذ يصهل بلحن فيه من الشوق أكثر من العتاب، رفع صوت صهيله أكثر، دق الأرض بحافره. وأخيرًا جاء عوض، نظر إليه دون أي تعبير، وقف أمامه صامتًا. هز البارع رأسه ليطيّر خصلته التي كانت تغطي بقعته البيضاء. أراد أن يؤكد لصاحبه أنه «البارع» وليس أي حصان آخر. لكن «عوض» لم يحرك ساكنًا، وظل على بروده. وبعد دقيقتين أدار ظهره وغادر مسرعًا.

ظل البارع مصوبًا ناظريه نحو عوض، وهو يبتعد رويدًا رويدًا. إلى أن ضاع بين الجموع. ولأول مرة في حياته نزلت دمعة ساخنة من عينه. بعد لحظات، ثنى ركبتيه الأماميتين، وجثا على جانبه، ثم أنزل عنقه بهدوء وأسند رأسه على حجر. ورغم أنه كان مصممًا على الموت واقفًا، كما تفعل الخيول الأصيلة، إلا أنه رغب أن يذرف دموعه على الحجر، ليسلم روحه بصمت وكبرياء.

وقائع موت حمار

جافاني النوم تلك الليلة المشؤومة، للمرّة الأولى في حياتي كلها أتنبه لنظرات «أبو عاطور»، لم أفهمها تمامًا؛ هل كانت حنونة، أم معاتبة، أم ناقمة؟ تذكرته حين اشتريته قبل عشرين سنة، كان حينها نظيفًا، صغيرًا، يقفز بخفة بين الصخور، لونه رمادي، وشعره منسدلٌ على رقبته، كانت عيناه واسعتين مكحولتين، يشبه كل الحمير، إلا أن شيئًا غامضًا جذبني إليه، ربما جينات خيولٍ أصيلة مختبئة في مكان ما في خلاياه، كانت تظهر من حين لآخر، حينها كنتُ أحار في أمره، أحسُّ أن دماءه تفور، وأنه يريد أن يقول شيئًا لكنه عاجزٌ عن ذلك، أو أني لم أحاول فهمه. في أوقات معينة كان يغدو عنيدًا بشكل مبالغ فيه، يرفض الأكل والشرب والحركة، يتصلب مثل شجرة يابسة، ثم فجأة ينهي إضرابه دون سبب مفهوم.

أتذكر حين وقف بعناد ذات مرة وسط الشارع، يومها وبناء على مشورة أصدقاء لي، قمت بمعاقبته وبإذلاله، ثلاثة أيام بلياليها وهو مربوط أمام عربة ثقيلة، يجرها دون توقف، دون طعام، دون أن أسمح له بالنوم، وكلما توقف أنهال عليه ضربًا، حتى كاد أن يموت، بعدها اختفت نوبات التمرد، صار حمارًا بجدارة.

تلك الليلة، وأنا أتقلب في الفراش، تذكرتُ كل مواقفه النبيلة، وخدماته الجليلة التي قدمها لي دون تذمر، وتنبّهتُ أني لم أشكره يومًا. هل من عاقل يشكر حماراً؟ ومع ذلك تنتابني الآن رغبة جامحة لأن أقدم له كتاب شكر، سأتلوه عليه في الصباح، سأكتب فيه: حماري العزيز أبو عاطور حفظه الله، لولاك ربما كانت حياتي مستحيلة. شكرًا لك، مع تمنياتي لك بموفور الصحة. أخوك: أبو متعب.

في الصباح، استيقظتُ لأتفقد «أبو عاطور» وأعتذرُ له عن كل ما بدر مني، توجهتُ إلى الحظيرة، فوجدتُ حبله مقطوعًا، وقد تركتْ عضته آثار أسنانه الكبيرة، قدرتُ أنه هرب، بحثتُ عنه حول البيت، في البستان، في الحقول المجاورة، سألتُ عنه الجيران، وبعد ساعتين من البحث المضني في السهول البعيدة، لمحتُ ما يشبهه مكوما تحت شجرة، اقتربتُ منه أكثر حتى فُجعتُ بالمشهد: كان ممددًا على جانبه، وفي عينيه آثار دمعة حزينة، تعابير وجهه محايدة تمامًا، كان ساكنًا بلا حراك...

هل فضَّل أن يموتَ بعيدًا عن البيت، حتى يريحني من معاناة الوداع، ومشقّة الدفن؟ أم رغبَ أن يمضي ليلته الأخيرة في البرية، وحيدًا، حُرًّا، طليقًا، متحررًا من كل قيد ومسؤولية؟

يوم مختلف في حياة امرأة

أشعرُ أن الفراغ يملؤني، يُغرقني. كل محاولاتي لملئه باءت بالفشل... كلما أنهيتُ روايةً تهشمت أحلامي على صخرة الواقع، طالعتُ كل ما نُشر عن العناية بالجسد، الغذاء المتوازن، أسرع وسيلة للتنحيف، فوائد الصوم. واتبعتُ ما لا حصر له من أنواع الريجيم الصحي وغير الصحي؛ ومع ذلك بقيتُ عاجزة عن خسارة بضعة كيلوغرامات من الدهن المتراكم في أنحاء مختلفة من جسدي. قرأتُ كل ما يتعلق باستنهاض الطاقة الكامنة، التأمل، أثر الموسيقى على الحالة النفسية، تجارب الرهبان البوذيين. وانتسبت إلى نادي اليوغا؛ ومع ذلك لم تشفَ روحي من القلق. انعزلتُ عن العالم، ولم تهدأ نفسي الملتاعة من الخوف. استمعتُ إلى تجارب مميزة لذوي إعاقة تغلبوا على عجزهم ببراعة، ولآخرين شقّوا طريق النجاح والشهرة والثراء. وكنت كل مرة أشعر أني بلا قيمة، وأكثر عجزًا.

أنا متزوجة من رجل أعمالٍ ناجح، وسيم، يعاملني باحترام، لدي طفلٌ في غاية الذكاء والصحة، وضعنا المادي أكثر من جيد، نعيش حياةً رتيبة هادئة في شقة واسعة في «الماصيون»، سيارتي

حديثة، إنها آخر موديل، أعمل موظفةً براتبٍ وفير في إحدى منظمات «الإن جي أوز» بدوام جزئي. يعني أنني أملك وقتًا كافيًا لممارسة هواياتي، التي أجهلها حتى الآن، ولدي ما يكفي من المال لأتسوق في أي وقت من الشهر، دون الحاجة لانتظار موعد الراتب، ولدي كل أسباب السعادة التي لم أذق طعمها الحقيقي بعد!

أملأ يومي، من مطلعه إلى نهايته، بأشغال متشابهة وبذات الوتيرة والمواعيد، أقابل الوجوه ذاتها، ونتطرّق إلى المواضيع ذاتها، «شو بدي أطبخ عالغدا؟» سؤال يتكرر كل يوم، ومع أنني أعدُّ كل يوم وجبة جديدة، إلا أنه خلال أقل من أسبوعين نكون قد اختبرنا كل وجباتنا المفضلة والمعروفة، لنبدأ الدورة مجددًا.

عادة، لا نأكل كثيرًا في المطاعم؛ فأنا مهووسة نظافة لدرجة الفوبيا، وإذا خرجنا نختار مطعمًا راقيًا وفخمًا، وعندما نقرأ قائمة الطعام نتعامل معها كما لو أننا في امتحان، زوجي يدقق في نسبة الملح، عدد السعرات، الكوليسترول. أما أنا فأركز على أنواع البهارات، المكونات، ترتيب الأطباق... وبعد أن ننتهي نعطي للمطعم درجة، كما لو أننا موظفون في وزارة السياحة ومهمتنا تقييم المطاعم. وإذا خرجنا في رحلة عائلية أقضي كل وقتي وأنا مشغولة بمراقبة طفلي، فلا يغيب عن عيني لحظة، أمسك بيده، أمنعه من عبور الشارع بمفرده، أحرص على ألا يوسخ ثيابه، وألا يأكل بشراهة أمام الناس. نعيش حياة نمطية «عَالمسطرة»؛ نمارس الجنس كل يوم خميس الساعة الحادية عشرة قبيل منتصف الليل، كما لو أنه موعد نشرة الأخبار الذي لا يخطئ، وهكذا يتكرر الروتين، ومع كل يوم جديد، يُسلخ جزءٌ من روحي، ويتراكم على قلبي بعض الصدأ.

ها أنا أقترب من الأربعين بسرعة مرعبة، لم أعرف بعد ماذا أريد؟ وإلى أين أريد أن أصل؟ وما الذي يسعدني؟ وما هو ذاك الشيء الغامض الذي ينقصني بشدة؟

لطالما حلمتُ بالريح تحملني على أكفّها فوق غابات الصنوبر، وضيّعتُ حقائبي في مطارات الكواكب، وغفوتُ في حضن وردة برية، وطالما أردتُّ أن أختبر مرارة الهزيمة، وأن أتذوق طعم الألم، وأن تتفجر هرمونات الخوف في شراييني، وأن أغرق في الخطيئة، وأن أحلِّقَ في فضاء الصمت، وأتعثر بضجيج الكلمات، وأن يُغشى عليَّ في محراب أغنية، وأن أحمل سحابة على كتفي لأعبر الصحراء.

وطالما أردتهُ أن يذيبني كل صباح في قصيدة، ثم يستخرجني ليلحّنها في المساء، وأن يزرع في حدقتيَّ ألف نخلة، وأن يخبّئني بين ضلوعه حتى ينساني الناس، وكم تمنيتُ أن تغسلني دموعه، وتجففني أنفاسه، وأن نهبط سويًّا من غيمة حالمة فوق رصيف مزدحم بالعاشقين.

كم مرةً حدّقتُ في مرآتي دون أن أرى شيئًا، سوى طيفٍ عابرٍ، غير قادرٍ على التشكّل، وكم مرةً صرخت في وديان صدري ولم أسمع سوى صدى أنينٍ خافت، وكم مرةً ضعتُ في متاهات الزمن وسرت مرتعبة، أبحث عنكَ، أو حتى عن ظلك!

هذا الصباح كان مختلفًا كلياً، استيقظ زوجي مبكرًا، ولأول مرة في حياته لم يهتم بتصفيف شعره، ولم يحلق ذقنه، وكانت هذه أولى مفاجآت هذا اليوم الاستثنائي، أعدَّ لي القهوة، صبّها في فناجين الكريستال التي لم نستعملها منذ زواجنا قبل خمسة عشر عاما،

جلسنا في الشرفة نرتشفها بتلذذٍ غير عادي، ارتديت بنطال الجينز وحذاءً رياضيًّا خفيفًا، لم أضع مكياجًا، خرجنا نمسك بأيدي بعضنا كما كنا نفعل أيام الخطوبة، قررنا أن نركب الباص، كانت تذاع أغنية لمحمد عساف.

مشينا في الشوارع على غير هدى، وخلافًا لما اعتدت عليه؛ لم ألتفت إلى واجهات المحلات، لم تكن لديّ أية رغبة بالتسوق، فقط رغبة بمشاهدة الناس، وقراءة وجوههم، وما تخفيه ضحكاتهم المجاملة، لاحظت أنّ الكلّ منهمك، اكتشفت أشياء لم أكن أعلم بوجودها، وعصفتْ في رأسي عشرات الأفكار.

توجهنا إلى سوق الخضار، لم أدخله منذ سنوات بعيدة، كانت أصوات الباعة تتداخل مع أصوات الزبائن، فيما تفوح روائح الميرمية والزعتر والجوافة، بينما اصطفت صناديق الفاكهة بألوانها المتدرجة والمتباينة كلوحةٍ زيتية، تفيض بكل ألوان الطيف. بالفعل كان مشهدا مميزًا. اشترى ماجد قليلا من الباذنجان والبطاطا والموز وأنواع أخرى لم أميزها، حملها بكلتا يديه، وسرنا ببطء وسط الازدحام، حتى وصلنا عند «الكندرجي». خلع ماجد حذاءه الأيمن ووقف حافيًا.

– «بس كندرتك ما فيها شي يا أستاذ! شو بدك أصلّح بالزبط؟»

– ما بعرف، يمكن بدها خياطة؟

– على كل حال، رح ألمعلك إياها، وأرجعها جديدة.

- شكرًا.

نفحه عشرة شواقل، وتظاهر أنه نسي أكياس الخضار والفواكه ومضى في سبيله فرحًا... قلت في نفسي ربما هو أيضا تظاهر أنه لم ينتبه، وربما فعلاً لم يكن منتبها. على كل حال أعجبتني حركة ماجد، وعندما شاهدتُ عامل النظافة وهو يضع على أذنيه سماعتي هيدفون، ويبدو في غاية الطرب، سألته:

- «عمو، شو بتسمع؟»

- أليسا.

دسَّت يدها في حقيبتها، وأخرجت «فلاشة»، وناولته إياها قائلة:

- هاي آخر ألبوم لنجوى كرم، أحلى من ميت أليسا.

- شكرا مدام، والله من زمان بفكر أشتريه.

قصدنا مطعمًا صينيًّا، أمسك زوجي قائمة الطعام بعفوية ومرَّرَ اصبعه على الجهة المكتوبة باللغة الصينية، وأشار إلى نوع معين دون أي تدقيق، ونظر إلى النادل قائلا: وجبتان من هذا النوع، كان الطعم مريعًا وغريبًا، حاولنا أن نأكل ولم نستطع، مع ذلك ضحكنا بشدة، وعلى بعد مئتي متر، تناولنا ساندويشات فلافل، ودخلنا إلى بيت درج لإحدى العمارات والتهمناها بشهية.

مررنا بصبيٍّ يافع، يبيع الورد والضحكات الشاردة، اشترى ماجد وردةً بيضاء، وأخفاها وراء ظهره، مع علمه أني رأيتها، ومع

ذلك قال لي بصوت مرح: اتبعيني، عندي لكِ مفاجأة... تبعته حتى دخل زقاقًا ضيّقًا، مختبئًا بين عمارتين، صوَّبَ نظراته نحو عيني وأمعن النظر في لحظة صمت طويلة، ثم ناولني الوردة وقبل أن أمسكها باغتني بقبلةٍ خاطفة، تركت على شفتي مذاقًا عذبًا، كدت أنساه، أعادني دفعة واحدة إلى زمنٍ خلته لن يعود.

كان مذاق ذلك اليوم استثنائيًّا. وظلت حلاوته تحت لساني لأمد طويل، مع كل حركة عفوية، كان قلبي يشتعل، وروحي تمتلئ بالحياة. وظلت حيرتي معلقةً بالأسئلة: هل كان قبل ذاك اليوم مثلي؛ ينصهر رويدًا رويدًا بنيران الانتظار، ويتعذب بالأحلام المستحيلة، أم كان يرتجف بردًا من السكون ورتابة الساعات، أم كنا معًا نهيّئُ روحينا للسعادة...؟

يوم هندي في أستوكهولم

قبل نحو سنتين، ذهبتُ إلى السويد في ورشة عمل مدتها ثلاثة أسابيع، وكانت تلك زيارتي الأولى للقارة الأوروبية؛ ولديَّ رغبة شديدة لأن أستفيد من كل ساعة في التعرف على معالم البلاد وأمكنتها... وصلنا مدينة «أوبسالا»... وهي مدينة جامعية صغيرة وهادئة، وغاية في الجمال والأناقة... وبما أنه في أيام العمل لا يتبقّى ما يكفي من الوقت للقيام بجولات سياحية، فيصبح الاعتماد على يومي الإجازة، السبت والأحد، لذلك، فهي بالنسبة لمن يقيم فترة قصيرة أيام ثمينة يجب استغلالها جيدًا، وهذا يتطلب إعداد وتخطيط برامج الزيارات بعناية.

وهكذا، قبل يوم من نهاية الأسبوع الأول، جلسنا في صالة الفندق، حوالي 25 شخصاً من مختلف البلدان، وجميعنا يزور السويد للمرة الأولى، ويفكر بنفس الطريقة، فبدأت كل مجموعة تخطط لزيارة مكان معين في اليوم التالي... كلٌ حسب رغبته واهتماماته... فمنهم من قرر التوجه إلى الحديقة الفلانية، والبعض إلى المتحف، ومجموعة إلى سوق المدينة للتبضع، أو لحضور مهرجان ترفيهي...

أما أنا فأعجبني مقترح المجموعة الهندية التي قررت مغادرة «أوبسالا» كليًّا، والتوجه لقضاء يوم كامل في «أستوكهولم»... المدينة الصخرية الساحرة العائمة على عشرات البحيرات... وهكذا اتفقنا على مغادرة الفندق في الصباح الباكر للاستفادة من كل دقيقة من ساعات النهار.

استيقظتُ في السادسة صباحًا، وخلال نصف ساعة كنت قد انتهيت من تناول الفطور والاستحمام وارتداء ما يناسب الطقس البارد، وجلستُ في الصالة أشرب القهوة وأنتظر المجموعة الهندية لننطلق معًا... مجموعة رائعة منسجمة مكونة من ثلاثة شبان وشابة من أقاليم مختلفة من الهند... صارت الساعة الثامنة ولم تكتمل المجموعة، وبدل الانطلاق في قطار الثامنة كما كان مخططًا، انطلقنا في قطار التاسعة.

وخلال الساعة التي تفصل بين المدينتين كان الأصدقاء الهنود يتصلون بصديق هندي آخر مقيم في «أستوكهولم»، وعرفتُ منهم أنه سيساعدنا في الوصول إلى أهم وأجمل معالم المدينة، بأقصر الطرق وأسهلها. وصلنا المحطة المركزية، وأمضينا نصف ساعة ونحن ننتظر الصديق الهندي الذي سيقودنا في جولة سياحية تخيلتُ أنها ستكون الأروع، خاصة وأن الطقس كان جميلا والنهار ما يزال في أوله .. كانوا يتصلون به ويعطونه إحداثيات موقعنا، ثم يناولون الهاتف لشخص آخر ويصف له المكان بدقة أكبر... إلى أن وصل أخيرًا...

تعانقوا بحرارة، وأخذوا يتحدثون الهندية، بأسئلة ومجاملات استغرقت أكثر من نصف ساعة، وأخيرًا نصحنا بالتوجه إلى الحمّام،

لأنه قد لا نجد حمّامات خلال جولتنا في أرجاء المدينة، وهكذا ضاعت ربع ساعة أخرى، ثم أرشدنا إلى وجود بطاقات خاصة قيمتها 100 كرون، ويمكن بواسطتها استخدام أيَّ قطار أو باص طوال اليوم في كافة أرجاء «أستوكهولم»، وعلى الفور توجه أصدقاؤنا الهنود إلى أقرب محل سوبرماركت لشراء بطاقة، وكان لا بد من استعراض كافة العروض المقدمة، وإجراء مقارنات بين البطاقات المختلفة من حيث مزاياها ومدى الاستفادة منها والتفاوض على السعر .. وأخيرًا وفّرنا ما قيمته 20 كرونًا، ولكن خسرنا نصف ساعة أخرى، كل هذا الوقت ونحن في نفق أرضي، ولم نرَ الشمس بعد.

مباشرة، ركبنا أحد الباصات، اعتقدت أننا متجهون لزيارة متحف نوبل مثلا، أو القصر الملكي، أو أي مكان آخر، بعد نصف ساعة كنا على مدخل شقة صديقهم الهندي، فاعتقدت أن الزيارة ستقتصر على تناول كوب من الشاي ومن ثم الانطلاق مجددًا؛ فإذا بها جلسة سمر تتخللها المكسرات والمقبلات والفواكه المجففة وجميعها بالبهارات الحارة، بما في ذلك الشاي... وهم يتحدثون بالهندي ويضحكون بالهندي... وأنا أستمع... حتى أن أحدهم وجّه كلامه لي وهو يقول عبارة معينة «بالهندي»... وطبعًا لم أفهم شيئًا، ولم يبدُ على وجهي أيّ انفعال، فكرر العبارة مرتين، حتى شككت أنه يقول شيئًا بالإنجليزية وأنا لم أفهمه، في المرة الرابعة ضرب كفه على جبينه مستدركًا وضاحكًا... آآه نسيت أنك لست هنديًّا...

بعد نحو ساعتان من الكرم الهندي، خرجنا، فتنفستُ الصعداء، وأنا شبه واثق أننا الآن بصدد زيارة مكان جميل ومهم...

صعدنا أحد القطارات، ونزلنا بعد محطتين، فإذا بنا في سوق كبير مسقوف، دخلنا أول محل للملابس والهدايا، وأخذ أصدقائي الهنود بالتسوق، ولم أكن حينها مستعدًا لتقبل فكرة التسوق، فبقيتُ أنتظر حوالي الساعتين، لم ندخل سوى محلين فقط، ثم توجهنا إلى أحد المطاعم الهندية القريبة، وتناولنا الغداء المكون من مجموعة بهارات مضاف إليها قليل من اللحم والأرز، حتى هذا الوقت لم نشاهد السماء.

قلتُ في نفسي انتهينا من الزيارات والمجاملات والتسوق وتناول الطعام، وبقي ساعتين من النهار، لا بد أننا سنتجه الآن وعلى الفور لزيارة البلدة القديمة، أو سفينة الفازا، أو إحدى الحدائق المائية، أو أي معلم مشهور... وبالفعل توجهنا إلى محطة القطارات على أمل أن أصدقائي الهنود حريصون مثلي على الاستفادة من ما تبقى من هذا اليوم... صعدنا القطار وانطلق بنا وهو يطوي المسافات، وأنا أتخيل أننا سننزل في المحطة القادمة، ولكن أصدقائي الهنود مكثوا في مقاعدهم، وعلى وجوههم ابتسامات عريضة وراضية... مضت ساعة كاملة، كان الظلام قد هبط، وأنا أراقب المنظر من الشباك، وأشعر أن الفرص توشك على النفاذ... أخيرًا وصلنا المحطة التي قرر فيها الجميع مغادرة القطار... خرجتُ من الباب ونظرتُ حولي، فإذا بنا في نفس محطة «أوبسالا» التي غادرناها صبيحة هذا اليوم الطويل...

«الله يرحم الأم «تيريزا»، والحاجة «أنديرا» وابنها «راجيف» وأبوها «جواهر لال نهرو»... ويمد في عمر «أميت باتشان» و«كارينا كابور» و«أنوشكا»... وهاظا هو!»

أبو مسهل الحمراوي

كان لشيخ القبيلة ابنٌ صعب المراس، قوي الشكيمة، حاد الطباع يُسمّى «أمجد»، أراد له أبوه أن يرث المُلكَ من بعده. وُلد هذا «الأمجد» يوم النكسة، وقيل إن غرابًا خطب بومة ليلة مولده، وجعل صَداقها ألف ضيعة خَرِبةٍ يعهد بها إلى مولود الغد؛ فجاء ذميم الخلقة كريه المنظر، وعزفت عنه أمّه بعد أن جف ثديها كمدًا، وضاق صدرها ذرعًا. عرضته على المرضعات فأَبَيْن، فنشأ الفتى ناقص الهمة، خامل الذهن. حزن أبوه حزنًا شديدًا، فوكَل به إلى من يلازمه من المؤدِّبين والمنجمين والحكماء؛ ليحسِّنوا طبْعه وتعليمه، فشقَّ عليهم أمره، وكان أبوه دائم السؤال عنه، فيذكرون له من أمره ما يحزنه من سوء فهمه وشراسة طبعه، فيأتي بغيرهم.

ظلَّ على هذا الحال، حتى جاء أحد المنجّمين، وقال: يا مولاي، سيكون لابنك شأنٌ عظيم، وستسمع به الأمم، وسيأتي على ذِكره الخلق أجمعون، حتى يصبح حديثَ المجالس، فعجِبَ الشيخُ أشدَّ العجب، وقال: كيف ذلك؟ وأنّى لهذا الصفيق البليد أن يبلغ شأنًا! فردّ عليه المنجم: في مقبل الأيام ستهوي شهبٌ، وستسقط

قممٌ، وسيُسجن أسدٌ، ويُطلق فأرٌ، وسترى عجبًا، وستبلُغ قيمة ابنك عشرين مليون دولاراً، كلُّ دولار بألف درهم مما تعدون.

نشأ الفتى في فلاةٍ من أعمال الزرقاء يقال لها «ظبعة»، تقع على مدخل الصحراء، وهي شديدة الحر، كثيرة الغبار، تحبس الأنفاس وتضيق الخلق، عُرف عن أهلها الجود والكرم، وذبح الشياه والغنم، ولما اشتد عوده ارتحل مع أهله إلى المدينة.

في اليوم الأول للمدرسة، وبينما كان يهمُّ بدخول الصف، وطأ على قدمه أحدُ الأطفال، فالتفت إليه مغضباً؛ فلطمه وهشّم أنفه، فاستعدى عليه الصف.

بعث إليه المدير وقال: ما دعاك إلى تهشيم أنف أخيك المسكين؟ قال: وطأ قدمي ولم يعتذر، ولولا أني كنت قد نسيت الموسى في بيتي، لشفّرتُ وجهه تشفيرًا، فصاح المدير قائلاً، أو قال صائحاً: ويحك، اذهب من فورك واغرب عن وجهي، ولا تعد إلّا بصحبة أبيك.

في اليوم التالي حضر الأب، فحدّثه المدير في أمر ابنه وفِعلته أمس، ولما فرغ المدير أطرق الأب برأسه، وقال: قد أعياني هذا الولد وسوّد وجهي أمام الخلق، لأرسلنّه غدًا إلى البدو عند أخواله، فأجنّب العالم شرّه، ولعلّ جوّ الصحراء ونسيم صباحها وسكون ليلها، وصحبة الطيّبين فيها تحسِّن خلقه وتهذّب مسلكه. وهذا ما كان على الفور.

في اليوم التالي خرج الصغير لبعض أمره، ولما طال غيابه اشتد قلقُ خاله، وحسب أن شرًّا طال ابن أخته، فأرسل مَنْ يحضره.

فوجدوه يحمل حجرًا بكلتا يديه ينهال به ضربًا على رأس أرنب بريّ أوقعه حظه العاثر بين يدي الصبيّ، فهشم رأسه حتى سوّاه بالأرض، قالوا له: ويحك، ما خطبك؟ ولم كل هذه القسوة؟ فأجاب: لما اشتدّ عليَّ الجوع، اصطدت هذا الأرنب لنفسي، ولما هممت بذبحه لأشويه فــرَّ مني، فشقّ علي إمساكه، وأعياني حتى استعدته، فأقسمت لئن أمسكته لأحطمن رأسه.

جاء مكوثه في البادية على غير ما اشتهى أبوه، وخلافًا لما قصد؛ فقيظ الصحراء وحرُّ رمالها وقسوة مناخها قضيا على ما تبقى لديه من مخلفات الطفولة، أو أثر لرحمة، أو بقية براءة وهبها الله لأقرانه، وأطلق عوضًا عنها الوحشَ الذي يسكنُه، وألبسه لباس الشدة والبطش.

بعد خيبة البادية، أرسله أبوه إلى قاع المدينة حيث الأسواق والكراجات، ليتعلم صنعة تنفعه وتقيه آفة الفقر وذلِّ السؤال.

جاء إلى سوق المدينة يعرض بعضًا من ثياب، فإذا برجل عن يمينه، يقول: نِعْمَ القميص في يدك، أهو من «البالة» يا أخا العرب؟ أومأ بالإيجاب، فأردف الرجل: لعمري إنه «سكند هاند»، فاستهجن قائلا: بلى، وما ضير ذلك؟ فقال: لا بأس، وما ثمنه؟ «قال: ديناران» فرد الأعرابي: يا هذا، قد زدت في السعر وشططت، فهل لك أن تقبل بدينار واحد؟ فنظر إليه أمجدُ شذراً وأحدق فيه مغضباً، وزمجر: إليك عني قبل أن أستلّ شفرتي فأجعلَ وجهك شوارعَ، فلا تبخس الناس أشياءهم بعد اليوم. ومضى صاحبنا على هذا الأمر: يهدّد الزبائن ويتوعدهم بالتشطيب والتشفير، حتى انفضّ الناس من حوله.

وقف ذات يوم على باب مطعمٍ، وكان يتضور جوعًا، أطال الوقوف حتى خرج إليه صاحب المطعم، وهمَّ بطرده، فردَّ عليه صاحبنا بقوله: ألا استخدمتني فترى مني ما يفرحك؟ فقال له: أيَّ عملٍ تُحسن؟ قال: «أحسن غسل الأواني، وشواء اللحم في الصواني»، فقالَ صاحب المطعم: حسنًا سأجربك، فإذا أقبل الضيف ألقِ عليه السلام، واسكُب له الطعامَ، ولا تكثر من الكلام.

اتفقا على أن تكون أجرة إيوائه وإسكات جوعه دراهمَ قليلة ينفقها على بعض أمره. في اليوم التالي دلف إلى المطعم رجلان من الأعراب، تقدم منه الأول، وسأل: ما عندك؟ فقال: ثريد ولحم ضأن وحساء وخبز، ومن المقبّلات التبّولة والخل والمايونيز، وأما الشراب فلبن ونبيذ، فماذا تريد؟ قال: إليَّ بكل ما عندك، فقد أهلكَنا الجوع واشتد بنا العطش، فعجّل يرحمك الله.

مضى إلى شأنه وأطال الغياب، فصاح به الرجلان يستعجلانه، فكَرِهَ منهما ذلك، فاستلّ سكينًا من المطبخ وأقبل عليهما غاضبًا، فلما ألفيا في عينيه الشرر ولّيا على أعقابهما ولم يُبقيا أثرًا، فجُنّ صاحب المطعم، وقال له: أمّا أنت يا وجه الشؤم، فلا أريد أن أراك بعد الساعة.

مَرّ على ورْشة لتصليح السيارات، وكان صاحبها يحمل مفتاحًا يشدّ به برغيًّا فوق صمونة، فقال له: أصلح الله المعلم، ما هكذا تُشدّ البراغي، لو شئت أعطيتني المفتاح وإني لها مصلِّح بإذن الله، فقال ساخرًا: ما أنت إلا واحدٌ من الصعاليك وما أحسبك تفهم في الميكانيك، فردّ عليه: بل أنا ضليع بالمفكات، وخبير بالبناشر، وعالم

بالتجليس، أُحسنُ شدَّ الصوامين والضرب بالشاكوش، جربني، فإن أفسدت لك الأمر فلا تستخدمني بعد ذلك أبدًا، «حسنًا» قال صاحب المكان، فرفع صاحبنا الجك وأمسك بالمفك، ودس رأسه بين العجلات فسقطت عليه، وكادت أن تسحقه وتجعله في عداد الأموات، فعجّل الرجل بسحبه، وقال موبخاً ووبخه قائلا: يا غلام قد بدأت قولك بأكذوبة، ونجوت من الموت بأعجوبة، فامض في سبيلك ولا تحملني وزرك.

وكدأبه فيما سبق، لم يفلح «أمجد» في حرفة، ولم ينجح في صنعة، وظل يتسكع على الأرصفة، يذرع الشوارع، في النهار ضائع وفي الليل جائع، حتى رآه سائق باص، فأشفق عليه واستخدمه.

وبين عمان والزرقاء، من الصبح حتى المساء، أمضى من عمره بضع سنين، يسأل الناس: «مين إله باقي؟»، «مين نازل عند الكازية؟»، «مين ما دفع لهسّه؟» حتى جاءه ذات مساء شيخٌ كثيف اللحية، أشعث الشعر يتكئ على عصا في يمينه، فمد يده وقال: يا حمراوي، هلّا بسطت يدك لتبايعني على أن تعبد الله على حرف، ولا تشرك به شيئًا، ولا تسرق ولا تكذب ولا تأتي ببهتان بين يديك ولا من خلفك، قال: نعم، قال: فامضِ في سبيل الله فأنت منذ اليوم «موسى الله الكبّاس»، فلا تشرعنّه إلا في وجه العصاة والكافرين.

وهكذا طلَّق «كونترول» الحافلة الشوارع والكراجات، والسرفيس و«الباصات»، وانطلق داعيةً في سبيل الله؛ فأطالَ لحيته، وقصَّر دشداشته، وسَنَّ مسواكه، فأعجِبَ به الشيخ، وأمره أن يحفظ من الآيات الكريمة خمسا، ومن الأحاديث الشريفة عشرة، ومن قصص التابعين عشرين حكاية، وأن يعود بعدها مغتسلًا متوضّئًا.

ولما كان اليوم التالي جاء الحمراوي متبخترًا مزهوًّا بنفسه، وجلس بين يدي الشيخ، وردد أمامه كل ما طلب منه أن يحفظ، ولما فرغ قال له الشيخ: سأُكنّيكَ بأبي مسهّل، وسأجعلك للمتقين إمامًا، وللدارسين فقيها، وللمجاهدين قائدًا، وللمتقاعسين نذيرًا، وللأعداء ندًّا، تحصدهم وتعدهم لجهنم حصيرًا.

أخذ «كونترول الباص» يأمر الناس بالصلاة وبالصوم، تارة بالنصح وأخرى باللوم، فمن امتثل واستجاب، صار من الأصحاب، ومن خالف وابتعد، أقسم أن يجعل حياته نكدًا على نكد، ولما رأى من الناس النفور والنكران، وقيل عنه مجنون أو سكران، ونال من الحكومة البطشَ والتنكيلَ، وزنزانة بزرفيل، جمع أمره وهمَّ بالرحيل.

انتهى به المطاف إلى بلاد الأفغان. هناك حط في دارٍ أعدّها الأمير نُزلاً للجُند، مكث فيها ثلاثة أيام، واستدان من راعيها مائة دولار على أن يردّها بعد شهر، ولما انقضت أشهرٌ عدة؛ استطال الرجل الأمر فطلب دَيْنه، فأنكره، فما كان من صاحب الدين إلا أن شكاه للأمير، فأرسل إليهما ليمثلا أمامه، دخلا عليه، وإذ لم يجد الخصمُ بيّنةً؛ ألزم الأميرُ «الكونترولَ» بحلف اليمين، فرفع يده وأقسم، ولما جاء الشهود تبين للأمير كذب يمينه، فقال له: ما دفعك ليمين غموس؟ قال: ضيق ذات اليد، وحرجٌ من الأمير، فعجب من جرأته وصراحته، وأمر لصاحب الدار بمائة دولار وخمسين خلعة، وبمركوبٍ حسن، ثم أمر للكونترول بمائة أخرى، وبملازمته والإفادة من فطنته ودهائه، ثم قلده قندهار وأعمالها.

ولج الحمراوي ذات يوم بلاط أمير المؤمنين «الملا عمر»، وكان عن يمينه وزيره «طحانة بن عاجن»، وعن يساره ندماؤه

ومستشاروه، فقال له: قد كان الأفغان العرب عندكم بالآلاف، بين قناص وسيّاف، وبعد أن منَّ الله علينا بنصره المبين على السوفييت والمشركين، ها هم الآن شرذمة قليلون، فمنهم من فرّ، وقليل منهم الصابرون، فانظر ما ترى بشأني؟ فأجاب الأمير: انفروا خفافاً وثقالًا، فإن أرض الله واسعة، واذهب إلى الشيشان، وتولّ أمرهم، وجاهد الروس جهادًا مريرًا، واقتل منهم من كان مشركًا أو سكيرًا، ثم عد إليَّ بعد عام.

حمل «الكونترول» بعض متاعه، وركب حماره، وساح في أرض الله هائمًا على وجهه، ولما حلّ الليل وأرخى سدوله، غلبه النعاس، فرأى في المنام طيف فارس على صهوة جواده يناديه: يا أبا مسهل، عليك بالأردن، فإنّ فيها قومًا فاسقين، عن الذكر يعرضون، وللمنكر هم فاعلون، وعن الطاغوت يدافعون، فإما تأتينّهم بسلطان مبين، أو تكون من الهالكين، قال: ربِّ بما أعطيتني من فهم وبطش، وأركبتني هذا الجحش، لأذيقنّهم من العذاب ما يسوؤهم، حتى يعلموا أنه الحق، فقال له الفارس: فاسرِ بنفسك بقطعٍ من الليل، ولا تلتفت خلفك، وامض حيث أمرك الله، ولا تتبع أهواء الماجنين، فإذا دخلت عمّان ورأيت الناس على ما هم عليه من فسق ومجون، فأنذرهم ثلاثًا، فإن أبَوا، فليأذنوا بحربٍ من الله وعبده، أبو مسهل وجنده، وابدأ بضرب الرقاب، واشوِهِم كالكباب، وخلِّ بنيانهم ترابًا وأرضهم خرابًا، واملأ منهم مقبرة «سحاب»، فجّر فنادقهم تفجيرًا، وكشّر في وجوههم تكشيرًا.

دخل «الكونترول» المدينة على غفلة من أهلها بنيّة حرق زرعها وإهلاك نسلها، فأمسك به جُند الملك، وساقوه إلى ضابط

المخابرات فقال له: وقعت في شر أعمالك، لأجعلنّك من المسجونين، ولأذيقنّك من العذاب المهين، فتكون من الصاغرين، أو أن تعترف على الملأ، وتدلنا على مكان إخوانك، ومصادر تمويلك، وعن خططك ونواياك، فإن تبْت غفرنا لك، وجعلناك عينًا لنا، ويدًا نبطش بها، وفتحنا عليك من خزائن الأرض ما يرضيك.

أبى واستنكر وعبس وبسر، فساقوه إلى الزنازين، وفي الصباح جاء الحارس إلى الضابط، فقال: مولاي، سجينك هذا قد قزّزني بإلحاحه، وما فتئ يطلب مقابلتك، فانظر ما ترى، قال ائتوني به، ولما حضر قال له الضابط: إما أن تتعاون معنا فلا ترى بؤسًا ولا فاقة، أو تركبك التياسة والحماقة، فأودعك سجن «سواقة»، فلا تخرج منه عمرَك حتى من سُمِّ الخياط تَلِـجُ الناقة، فما قولك يا عديم الأناقة؟ فقال: لو أذنت لي بركعتين أختلي بربي...!

أذن له، فشرع في صلاته؛ يدعو ربه ويناجيه، من هذا المصاب أن ينجّيه، ودعا: ربّ عن رؤيتي أعمِه، وسهِّل عليّ فراري وغطِّه، فاستجاب له ربه وجعل على أعينهم غشاوة، وفي أرجلهم رخاوة، وساق له مركوبًا، وفتح له دروبًا، ويسّر له هروبًا.

ولما انقضى العام ورغب بالعودة وملاقاة الأمير، كانت بلاد الأفغان كلها قد سقطت في قبضة الأمريكان، وكان الإمام مختفيا في جحور طورا بورا، فبحث عنه وأطال البحث، حتى شق عليه الأمر، فلاقاه شيخٌ جليل ممشوق القوام أبيض الوجه مخضّبةٌ لحيته بالحناء، فقال له: أحسبك أبا مسهل؟ قال: بلى، ومن أنت يا أخا العرب؟ قال: إنما أنا رسول الأمير وحامل ختمه وأمين سره، وقد

حمّلني إليك هذا الكتاب، قال: فما اسمك؟ قال: كنّاني الأمير بأبي قتادة. فعجب «الكونترول» من لكنة الرجل وعوج لسانه؛ فقال له: ألست عربيًّا؟ قال بل أنا من بلاد «العم سام»، وقد منَّ الله عليَّ بالإسلام، ثم أنشد:

ألم تـــرني بعـــتُ الضـــلالة بالهـــدى

وأصبحت في جيش ابن عاجن غازيا

وقد كنت للهمبرغـر والكنتـاكي آكـلا

وها أنـا للثريـد والتـين المجفـف طالبـا

وما عـدت للخمـر شـاربًا، ولا الجينـز

لابسـاً ولا للقمـيص المجعلـك كاويـا

قال له: آمنت خوفًا أم طمعًا؟ قال: بل حبًّا في الله ورسوله، فسُرَّ الحمراوي من الرجل، وقال له: إن حَسُن إسلامك صدقناك، ومن دفع الجزية أعفيناك، والآن اذهب إلى الأمير وبلّغه السلام، وقل له: إنّا جاهزون لما تأمرون، وكلمة السر بيننا هي: «مين إله باقي؟» وموعدنا في الجنة يوم التلاقي.

«من عبد الله أبو مسهل إلى مولانا وحامي حمانا وولي نعمتنا ورب أسرتنا، الحاكم بأمر الله طحانة بن عاجن أعز الله جانبه وأذل أعداءه، أما بعد... فقد وصلني كتابك وسرني خطابك، منك الأمر وعلينا الطاعة، فوالله لو أمرت بشق الأرض لأطعناك، ولو سرت بنا إلى البحر لتبعناك؛ فأنت ظل الله الممدود، وخيره المفرود، فامضِ على بركة الله».

«من طحانة بن عاجن أمير المؤمنين، وحاكم المسلمين، وقائد المجاهدين في مشارق الأرض ومغاربها، إلى عاملنا وموضع ثقتنا أبي مسهل، أما بعد... فمن السلطان الذي ألبسنيه الله، والمال الذي أنعم عليَّ به، والنور الذي هداني إليه لصلاح أمر المسلمين، فوّضناك عاملًا على أرض الرافدين، فامض لملاقاة الكافرين، وقاتلهم بلا هوادة، ولا تأخذنّك بهم شفقة ولا رحمة، فقد شاقّوا الله ورسوله واستباحوا أرض الإسلام، وأحلوا الحرام، وذبحوا أهلنا كالأغنام، ستأتيك تعليماتي مع أبي قتادة، نفذها دون نقص أو زيادة».

مرَّ أبو مسهل بشيخٍ كبيرٍ يجلس على قارعة الطريق، وقد همّ بحمل متاعٍ على كاهله فناداه: تعال أيها الأحمق، فكتم أبو مسهل غيظه، خشية افتضاح أمره، وصاح بالشيخ: وكيف عرفت أنني أحمق أيها الشيخ الأخرق؟ قال: يُعرف حُمق الرجل بخصالٍ أربع وأحسبها فيك، قال وما هي؟ قال: طول لحيته، وقبح وجهه، وزناخة دمه، وسوء هندامه، ثم أردف قائلا: وليست هذه كل خصالك، فقد لمست فيك خبثاً ولؤمًا، فقاطعه بقوله: لولا أنك شيخٌ كبير لضربت عنقك، وإني لأعجب من قولك هذا، وأنت بالكاد رأيتني! قال: أما لؤم المرء وخبثه فيُعرف من خصال أربع: غلظة طبعه، وقسوة قلبه، وإفراط شهوته، وبذاءة لسانه، فقد مررت بقربي «تتسلبد» كاللص، ولم تطرح علي السلام، ورأيتني أهمّ بحمل متاعي، ولم تسألني وأنا شيخ كُبير.

كتب الحمراوي لأميره ابن عاجن: «من عاملكم في العراق أبو مسهل، إلى المعز بعون الله أمير المؤمنين قائد جحافل المجاهدين

الظافر بالنصر المبين بن عاجن وصحبه أجمعين، أُقرئكم السلام، أما بعد... فقد أذن الله لنا بجهاد الكفار والمشركين، حتى تكون كلمة الله في عليّين، وعليه فقد اجتمعت برسولكم «أبو قتادة» وهدانا الله إلى ما هو أدناه:

سنبدأ بجهاد النصارى، وسنقتلهم جهارًا نهارًا،

لن نذر منهم في العراق ديّارًا، وسنجعل دماءهم تجري أنهارًا.

ثم سنفجر السفارات، والملاهي والحانات.

ثم سنحرق صناديق الانتخابات، والمراقد والعتبات.

ثم سنخطف الأجانب والسياح، ونقطع الرؤوس وندمي الجراح.

ثم سنقتل الصحافيين والكتّاب الذين ينعتوننا بالإرهاب.

ثم سنفجر الأسواق والميادين، والناس فيها مجتمعين.

ثم سنشن حربًا على الشيعة والأئمة، من القاع إلى القمة. ثم الشرطة والمغاوير، ومن كان لهم نصيرًا، وموظفي الحكومة ومستخدميها.

أما الأكراد فسنبيدهم كالجراد، ثم الأطباء والعلماء، فالفقهاء المدعين، والأساتذة المنافقين، وبعد أن نفرغ من كل هؤلاء، سنبدأ بقتال الأمريكان والمحتلين!

ولما همّ أبو مسهل بدخول بغداد، وهي محاطة بالجنود والقوّاد، وأعدادهم في ازدياد، وأياديهم على الزناد، حار الرجل ولم

يدرِ أيَّ طريق يسلك، فإن رآه أحد انتهى وهلك، فاختفى بين البوص على ضفاف دجلة، ويداه ترتجفان وأعصابه وجلة، فخرجت من الماء سمكة مباركة تدعى صرصرة بنت غرغرة، وقالت يا أبا مسهل: لو شئت سلكت هذا الدرب، ففيه منجاتك، وأشارت له بزعنفها، فسار فيه، وجنّبه الله شر الأمريكان!

وبعد أن فعل في بغداد الأفاعيل، سار صوب الفلوجة والرمادي، لملاقاة الأعادي، فقد أدرك بحنكته ودهائه وحكمته وسخائه، أن شعب العراق أهل شقاق ونفاق، ورغم ستة آلاف سنة من الحضارة، ما زالوا يجهلون أمور دينهم ودنياهم؛ شيء ما عن رؤية الصواب قد أعماهم، ولا يدرون كيف يذودون عن حماهم، ويقهرون من عاداهم، تنقصهم القيادة والزعامة، أحدٌ لا تأخذه في الحق ملامة، فقرر أن يتطوع لقيادة المقاومة دون خضوع أو مساومة، دونه البلاد ستضيع والشباب تصيع، ولن يأتي الخلاص، إلا على يد «كونترول الباص».

أتى الفلّوجة في ليل، ومعه رهطٌ من خاصّة رجاله، وقد حملوا معهم ما استطاعوا من القنابل والديناميت. لاقاهم بعض الملثمين، فاستوقفوهم ليتبينوا أمرهم، فقال قائل منهم: ويحك يا أبا مسهل، ما اتّبعك إلا الأرذلون، والله ما رأيت منهم إلا كل لكّام ومصّاص وقطّاع ونهّاش وفتّاك ونشّال ومحول!

فقال: والله إني لأفضّل الدهاقين والمقرفين على الشباب المائعين والمترفين، فما عصوا لي أمرًا قط، وما قلت لهم هذا كافر، وذاك فاجر، فأتوني برأسه إلا وفعلوا، فإن كنا شرذمةً قليلين، فلا

تستهن بنا وتحسبنا عصبةً من الشطار، فافتح التلفاز واسمع الأخبار، سيَرِدُ ذكرنا سوية، حتى في النشرة الجوية، فنحن من يصنع الرعب في قلوب الكفار والأمريكان، ومن دوننا لن يجد «بوش» ما يقوله لناخبيه...!

قال الملثم: فما جاء بك الساعة، ونحن على ما نحن عليه من قتال وسجال؟ أجاب: جئت أعينكم، فرد عليه: ما لنا بك حاجة، وانظر أين تبيت الليلة كالدجاجة، فالقصف قد اشتد وزاد عن الحد، فصاح: لا تخشَ علي سآوي إلى ركن يعصمني، ومكث تحت الردم ثلاثة أيام وأربع ليالٍ حسومًا، حتى ظن القوم أنه قد مات.

ومن بين الحطام سَمع أنينًا خافتًا فاقترب وإذا به حجر يُقال له أحلس بن أملس، يقول له: يا أبا مسهل هذا أمريكيٌّ أمامي تعال فاقتله. ومن حجر إلى حجر، ومن بين الشجر، تسلبد صاحبنا بخفة، وعبر الضفة، ونجّاه الله من الأمريكان.

سار نحو الموصل ثم القائم ثم الرمادي دون أن يراه الأعادي، وكان يظهر كالبيرق ويختفي «كالزيبق»، وكل مدينة يدخلها يشن عليها الجيش غارة، فيدكون كل بيت ومغارة، ويقلبون عاليها سافلها. وذات يوم، بينما كان القوم يغطون في النوم، همست في أذن أبي مسهل شجرة تكنّى بأم حفحف كان ينام تحتها، فقالت له: ويحك، قد جاءك الجيش زاحفًا، وما تزال هنا لاحفًا! فدعا رب العالمين، فنجاه من الأمريكان ومن معه أجمعين.

وذات ليلة سوداء، كثر فيها الضجيج والضوضاء، أصيب صاحبنا بالعياء، لا ندري أمِن رصاصة طائشة؟ أم من سهامٍ فاحشة؟

أجاءته من شيعة عليّ، أم من أتباع عائشة؟ لملم جراحه وسار في الفلاة، وصوَّب نحو الشرق خطاه، ودعا ربه في علاه، فوصل إيران وهو مهيض الجناح، مثخنٌ بالجراح. سأله الملالي، بوجهٍ عابس: كيف دخلت بلاد فارس؟ فقال: ألا ترونني عاريًا والبرد قارص؟ ساقوه إلى المشفى وعالجوه، ثم إلى بغداد أرجعوه، ليؤجّج فيها الصراع، ويجدد الأحقاد.

ومن أخبار «الكنترول» أن جاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى: من رأى منكم أبا مسهل؟ وكان القوم بين مجهد ومتعب، فقال قائل منهم: أنا رأيته بأم عيني قتيلًا، محاطًا ببركة دم، فلم يفرّق الموت يومها بين خالٍ وعمّ، أو بين سامعٍ وأصمّ، وأقسم على ذلك، فكل الدروب والمسالك، كانت تؤدي إلى المهالك. وقال آخر: بل رأيته بأم عيني أسيرًا خاضع النفس كسيرًا، يوم كنت أنا في ذات السجن في أحد المعسكرات الأميركية. وأكد له آخر أنه في حفرة قابع، لا تطالها المدافع، لا «شايف» ولا سامع. ثم قال رابع: بل هو يسكن في شقة، ليس فيها نَصبٌ أو مشقة، ينام فيها ليل نهار، ويسمع عن نفسه الأخبار. وأقسم خامس: بل هو الوهم والسراب، أغشى على أعينكم الضباب، ألم تروا أن باسمه حل الخراب، وحيثما ذُكر نعق الغراب!

فردّ سادس: ولمَ تسأل عنه؟ هل أردت تسليمه فتظفر بالجائزة؟ أم أردت قتله فتريح العالم من شرّه؟ أم أردت طرده فتغسل العار الذي لحق بالمقاومة بسببه؟ أم أردت فضحه فتحرم «بوش» من وهمٍ اقتات عليه، وعدو لا يريد هزيمته؟ فأجاب: لا أدري، أريد أن أراه فحسب.

وقيل إن «أبو قتادة» جاء يهرول ودلف على عجل إلى المخبأ فلاقاه «الكونترول»، وقال له: ثكلتك أمك أين كنت؟ وما بالك غبت فأطلت؟ فأجاب: حدثني الظواهري، عن ابن عاجن حين قال: «إياكم والموبايل فإنه عرضة للتنصّت، وإّذا أراد الله فضح امرئ حدثه بالنقّال، قال: وكيف يكون الاتصال؟ فقال: «عليكم بالثريا، وأكثروا من الرسائل المشفرة»، فأخرج أبو مسهل من بين أسنانه شيئًا حادّاً وهَمَّ بتقطيع رسالة كان قد فرغ منها للتو فجعلها إربًا إربا، فاستعجب رسول الأمير، وقال:لم فعلت هذا؟ قال: ألم تقل لتوّك أنه يريد رسائل مشفّرة، وها أنا ذا قد شفّرتها تشفيرًا، فقال له الرسول: بل أراد أن تمسّح له تمسيحًا، أو ترسل له بالإيميل، قال أبو مسهل: وما الإيميل؟ قال: ألم تكونوا تخطّون رسائلكم على ورق البردي، ثم توفدون رسلكم على ظهور الخيل؟ قال: بلى، فقال أبو قتادة: أما الآن إن شئت أن تخطّ ما طاب لك على الكيبورد فسيأتي ماردٌ من الجان ليرسلها إلى أقصى الأرض قبل أن يرتد إليك طرفك.

فغر «الكونترول» فاه وقال متعجبًا، وتعجب قائلاً: لئن سخرت مني وتخوثت، لأقطعن يديك ورجليك من خلاف، ولأصلبنّك على جذوع النخل، وأدع الطير تأكل من رأسك، قال: بل الحق أقول، وفوق هذا سأعهد إلى نفر من جماعتي في المسجات مختصين وبالإنترنت عالمين، سيعمدون لإطلاق ويب سايت، وقناة ستالايت، وعبر الهاتف المحمول ستصول وتجول، وعبر موقعك الخاص ستبث للعالم ما تشاء، من أخبار السماء ورؤيتك للخلاص. فقال متلهفًا: عجل إذن يرحمك الله.

وكان أن رُوي عن عقلة بن خلف أنه بينما كان في مجلس الوالي أبو مسهل الحمراوي، فإذا بالحاجب يهمس في أذنه: مولاي، بالباب رجلان يلحّان بالدخول فلو أذنت لهما، قال: ويحك سلهما من أي البلاد هما؟ ثم دعهما إلى مجلسي يدخلان.

ولما حضرا إليه، أنشد الأول في وصف الوالي وأكثر من المديح، فأمر له بألف دولار، ثم جاء الثاني وقال: ما لهذا جئناك، بل نحن مجاهدون وطلاب شهادة، ونريد أن نقتص من الأمريكان، وإنّا رهن إشارتك، قال: حسنًا، وأمر أن تهيّأ لهما الأكفان، ثم أمر بتغسيلهما والصلاة عليهما، ثم أخذ يستغفر لهما، ويدعو لهما بالرحمة. ولما فرغ، قال: أنتما على مرمى حجر من الجنة، فطوبى لكما هذا النعيم، وهنيئًا لكما هذا المجد، وتقبل الله شهادتكما وأحسن ختامكما، بعد ساعة ستكونان بين يدي ربكما في جنة العلا، عند سدرة المنتهى، مع النبيين والصديقين، تنكحان من الحور العين، وتأكلان ما لذ وطاب، من فاكهة وأعناب، تسرحان وتمرحان، ولكما ما تشتهيان، من الخمور تشربان، وعلى الكفار تضحكان، وعلى الأرائك تجلسان، وفي الحرير ترفلان، سترتاحان من الدنيا وهمومها، وستنجوان من فتنتها وسمومها، أيَّ نعيم أنتما فيه؟ وأيَّ خير ينتظركما؟ فقالا: عجل بنا أدامك الله.

فأمر أن تجهز الأحزمة فوق البطون وأن يُحكم وثاقها، ولما كان ذلك، ورأى في وجهيهما حمرةً ورجفة، وأحس بنيّتهما تغيير رأيهما، قال: ويحكما ستتحولان من جربوعين لا يجدان ما يقيم أودهما إلى بطلين، ومن تعيسين إلى شهيدين، ثم سألهما بحزمٍ وصوت ناشف،

أرأيتما هذا الحزام الناسف؟ فأجابا: نعم... فقال: لا يحمله جبانٌ وخائف، وذو قلبٍ راجف، فأية حركة مريبة أو محاولة للانسحاب، ستجعل لحمكما فتاتا وعظمكما ترابًا، وليس أمامكما، منذ الآن، إلا المضيّ قدمًا نحو الشهادة، بلا تعليق أو أسئلة زيادة، فلا تجادلا في الحق بعد إذ تبيّن لكما، ولا ترهقاني بأسئلتكما، ما بالكما إليَّ تنظران، كأنما للموت تساقان! فأجابا: لا ندري أين نذهب، كأنما سيق بنا إلى مقلب، فرد عليهما الجواب: كأن على رأسيكما الطير، مع أنني أدلكما على الخير! يودّ أحدكما أن يظفر بحياته، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته، فسألاه: وأين نذهب؟ وقد أدركنا أنه لا مهرب، قال: امضيا إلى السوق، ستجدان قومًا طمس الله على قلوبهم وأعمى بصيرتهم يتطوعون في سلك الحكومة والشرطة، ويوقعون البلاد في ورطة، فاقتلوهم وأثخنوا فيهم الجراح، لعلنا منهم نرتاح، فردّا عليه: السوق بعيد ويحتاج مسيرَ ساعتين، ولا نعرف التدبير، إذا دنا وقت التفجير، فقد تنتهي المهلة، في أية لحظة أو وهلة، فتنفجر القنبلة ونقتل العباد، قبل أن نبلغ المراد، قال: لا يهم، ستجدان أهدافًا عديدة، ولتكن ضربتكما سديدة، وميْتتكما فريدة.

ومن كثرة الأفاعيل وتطاير الأساطير حول «الكنترول» أرسل زعيم الأمريكان رسالة جاء فيها:

«من جورج بن بوش، أبو الحروب وقاهر الشعوب إلى عاملنا توني بلير ناهب الخير، أما بعد:

ألم ترَ إلى تنظيم القاعدة كيف نما وتطور، وبغى وتجبر، وانتشر في مشارق الأرض ومغاربها، واستباح محارمها، أتباعه فجّروا

السفارات، وهدموا العمارات، وخطفوا الطائرات، وهم يقتلون العباد، ويعيثون في الأرض الفساد. في مدريد، نسفوا سكة الحديد، وفي لندن، أصاب الناس الوهن، أما روما وباريس، فملئتا بالمتاريس، وأما برلين وبون، فطلبتا منا العون، العالم كله خائف، من هذا الشر الزاحف، لهم في كل دولة أمير، وفي كل سجن أسير، وفي كل ولاية أتباع، وفي كل مدينة ذراع، وفي كل حي عين، وعلى كل بنك ديْن، ولا تنس الخلايا النائمة، فإن استيقظت لن تقوم لنا قائمة، والخلايا «النعسانة» والمجموعات «التعبانة»، والفصائل الفلتانة، اتبعنا معهم كل الأساليب، من قتل وتدمير ونسف وقصف واحتلال وقهر وسجون، حشرناهم في طورا بورا، زرعنا الحدود «بالجندرمة»، ونشرنا في المدن العسس، ولما استخدمنا الأقمار الصناعية جاءت غمامة أظلت الجبال وحجبت عنا الرؤية، ولما تتبعنا الرسائل الإلكترونية، بقلب صافٍ وحسن نية، ضللنا الطريق، وغصنا في وادٍ سحيق، تخيل أنهم تفوقوا علينا في الإنترنت وعلم الحاسوب، وما أنا على ذلك بكذوب.

هذا الكلام وإن بدا سخيفًا، عديم الحجة وذا دليل ضعيفٍ، فإنه بالضبط ما أريد أن يقال، في كل صفحة ومقال، وإذا كان له تأثير قليل، فلا بأس من التهويل، فدون الحديث عن الإرهاب، لن نقدر على كسب الأصحاب، ودون أن يعم الرعب القلوبَ، لن نقدر على شن الحروبِ، ودون القتل والممات، لن نكسب الانتخابات، نريد أن نصنع الرعب ونلوح به ونعظم شأن عدونا حتى نجد إلى البترول سبيلا، ثم ننصب عليه حارسًا وكفيلا، ألم ترَ إلى أبينا

«ريغان» عندما تهاوى أمام بطشه الأعداء، ولم يجد له ندا لا تحت الأرض ولا فوق الماء، صوّب ناظريه نحو السماء، وأطلق حرب النجوم، حتى يستمر النهب ويدوم».

ومما رُوي من مآثر أبي مسهل لما أراد ابن عاجن أن يرسل إلى العراق «الديرتي بومب» سأل «الكنترول» معاونيه عن هذا الشيء، فقيل له: هي القنبلة القذرة، فصاح: أصلح الله الأمير، لو سألني لأرحته من عناء السفر ووعثاء السهر ومشقة التهريب، فطلب من الجند أن يحضروا له بعض القذائف، ولما فعلوا، قال: إليَّ ببعض الزبل وشيء من الوحل والطين، فأحضروا له ما طلب، ثم أمرَ فمرغوا القذيفة بالوحل وصبوا عليها من الزبل، وقال: إيتوني أفرغ عليها من الزفت والربش والقمامة، فلما انتهى تورّد وجهه فرحًا وهلّل مغتبطًا: ها كم ما طلب الأمير، فامضوا في سبيل الله لملاقاة الكافرين.

وزعم الراوي أن أبا مسهل، ومن آمن به قد تمرغت وجوههم في ذات الوحل، وأقسم الأيمان الغلاظ بأنه قرأ أسماءهم على إحدى المزابل وقد كُتبت بأحرفٍ من طين، وأنه قبل أن يُطْلق رصاصة واحدة على الأمريكان، قضى بصاروخٍ أطلقته طائرة بلا طيار، لكن صخرته التي تفتتتْ إلى أحجار، تناثرت في كل الديار، بكل سمومها وما حوته من أفكار، فتلقفها نفر من رهطه، هم أول من حاول الانفصال عن العراق، وأول من دعوا لتقسيمه علانية: داعش، ذات الفعل الفاحش... التي بعد خراب البصرة، أتت الشام في ليلٍ كئيب، لتهدم من كل بيت ركن، ولتزرع في كل قلبٍ حسرة.

فانتازيا أفغانية

يحكى أنه في قديم الزمان، في بلاد تسمى أفغانستان، كان يحكمها ملكٌ متفائل، يحرص على أن يبدو الملكَ العادل، وأنه لا يقرب الإثم ولا الباطل، ينهض مع أول شروق الشمس، ولا يحدث سامعيه إلا بالهمس، ولا يقرب جواريه لا بالضرب ولا باللمس، ولا يدلس على ذاكرة الشعب لا كذبًا ولا طمسًا، ويقال إنه لم يقترف ظلمًا، ولم يهدم بيتًا، ولم يوجه بلاده لا شرقًا ولا غربًا.

وفي يوم موعود، جاء ابن العم داوود، وبمنتهى اللؤم، أقصى الملك عن الحكم، بعد أربعين عامًا قضاها، من أولها إلى منتهاها، حَكَم المملكة، حتى أوصلها إلى التهلكة، وانتهت برحيله الملكية، وحلّتْ مكانها الجمهورية، لعل النظام الجديد يأتي بما هو حميد، فلا يُحكم الناس بالنار والحديد، ولكنْ، دوامُ الحال من المحال.

ففي ليلة ظلماء غاب عنها القمر، وكانت النجوم في أول السهر، كان الحزب على موعد مع القدر؛ فنادى على العمال والفلاحين، والفقراء والمساكين، أن هُبّوا معًا وسويًّا، لنكسر رأس البرجوازية، وندك عروش الرجعية.

جابوا البلاد طولًا وعرضًا، فلم يجدوا لا مدرسةً ولا روضة، وجدوا العباد يسرحون بين التيه والفوضى، لا كادحين ولا عمال، ولا أرباب لرأس المال، والعلم لم يخطر لهم على بال، والزراعة في أسوأ حال، كل البلاد نظيفة، من الصناعات الثقيلة والخفيفة، وشعارات الحزب صارت أكثر من سخيفة، فاجتمعت اللجنة المركزية، وقرأت كلَّ بنود الماركسية، والنظرية اللينينية، وفصولَ علم النفس، ونظريات فرويد في الجنس، وعلومَ الاقتصاد، ومنعطف التاريخ الحاد، وقارنتها كلَّها بأحوال البلاد والعباد.

وبينما هم في حيرة، ويؤرخون لهذه المسيرة، احتار معهم نجيب الله، حتى ثار عليه عباد الله، لم تفرقهم خلافات، ونفوسهم خلت من الحزازات، وقالوا إن ما فات قد مات، فلننسَ ما كان ماضيا، ولنجعل النبي بيننا قاضيا، فبدا الجميع لهذا الحكم سعيدًا وراضيا، وكان الله لسعيهم هاديا، فملؤوا السهل والوادي، وحملوا بنادقهم، وسنّوا خناجرهم، ونادوا بملء حناجرهم: يا ربُّ، إن تهزم طائفة الأفغان، فلن تُعبد في الأرض بعد الآن، ولن تُدعى بعد اليوم يا رحمن، فالخيار خيارك، ونحن عبيدك وأخيارُك، فظنوا أن الله استجاب لهم وأمدّهم بألف من الملائكة مسوّمين، كانوا في الحرب متمرسين، تشهد لهم بدر والخندق وحنين. فلبّى الأنصار مسرعين، حتى إذا ما جاء حكمتيار، صاح جئناكم بالنصر المبين.

ويحكى أنّ بعض المحدثين الثقات، الذين هم للشيطان أعداء وعصاة، قالوا إنه في أحد الأيام، بينما نحن في الصلاة خلف الإمام، نزل علينا جسم غريب، فصلينا على الحبيب، وذكرنا السميع

المجيب، وبعد أن فرغنا من الدعاء، وقد حل علينا المساء، نظرنا للجسم فكان عبارة عن قذيفة، لم تحدث فينا وجلًا ولا خيفة، وتفرقنا بسرعةٍ قليلة، وقد لا تصدقون يا سادتي هذا الخبر، فبعد أن صرنا في مأمن من الخطر، إذا بالجسم قد انفجر!

أما الراوي الآخر، الذي أثابه ربه وآجره، وكان قبل أن يتوضأ قد بال من الخوف والهلع، ثم كتب هذا المقال الذي لم يخطر على بال.

فبينما هم على مائدة العشاء المكون من الخبز اليابس والحساء، إذا بصاروخٍ طويل، بريقه كألف قنديل، ورأسُه المدبب نحو القوم يميل، صده تابعُ جبريل، فانقلب الصاروخ مكسور الخاطر وهو ذليل.

راوٍ ثالثٌ حدّثنا، وكان بقصته قد أربكنا، وأقسم الأيمان الغلاظ، وقلبه بالإيمان قد فاض، بأنه ذات صباح، وأمل النصر قد لاح، شاهد طائرةً مسرعة، تحمل القذائف المهلكة، وحين صارت في سماء المخيم، وقد عمّ عليه الرعب وخيّم، نزلت القذائف، والمجاهدون بين راكضٍ وزاحف، أو تحت الغطاء لاحف، وحالما رفع المجاهد يديه، وأخذ يدعو فاغرًا فاه، تصوّر له أن عناية الإله أرسلت طيورًا بيضًا؛ ترسل الوميضَ، وكادت لكثرتها التي تملأ الفضاء، وأن تسد الأفق والسماء، فحمل القوم تلك القنابل الكبيرة، وأدوا مهمتهم العسيرة، ليحموا المخيم والديرة، وردّوها على أعقابها كسيرة، فقال فرحا: سبحان الله ما أعظم تقديره!

أما عن إمام الأنام، المجاهد المقدام، الذي لا يُنيّم ولا ينام «ضيف الله بن سحّام»، فعن صاحبنا هذا، لا تسألني لماذا وجد في

بلاد الأفغان ملاذًا، لكنّ له قصةً مثيرة، تدل على حكمته وتدبيره، لا ينتابك معها شكٌّ ولا حيرة، فهذا الشهيد البطل، سكن مغارةً في أعلى الجبل، ليبتعد عن ظلم الناس ويعتزل، ويلقي على المجاهدين النصائح والجمل، وكان قبل أن يفعل ما فعل، قد قال بأن جرح فلسطين قد اندمل، والجهاد فيها لا يحتمل، فثوارها لا يلبسون الدشاديش الخفيفة، ولحاهم ليست كثيفة، وقلوبهم من التقوى نظيفة، أما عن اليهود، فقد كان لا يكف عن دعاء الرب المعبود، أن يشتت شملهم، ويهلك نسلهم، ويحرق زرعهم، ويتّم أطفالهم، ويرمّل نسوانهم، وأن يجعل دماءهم تجري بين أرجلهم، وكانت جموع المصلين، تردد من خلفه «آمين»، ولجهوده الجبارة شاكرين، وعلى طول سهره مشفقين، وعن تلبية دعواته عاجزين، فقال لهم الإمام، وقد بدا رقيقًا كطير حمام، لقد مللت منكم وإني لراحلٌ عنكم.

وقبل أن يترك الأوطان، ويتجه إلى بلاد الأفغان، جمع الأحبة والخلان، وقال لهم وهو ناعس العينين، وقد فاض الإيمان فيه من الجنان: لقد اطمأننت على الأوضاع، من أعلى جبل حتى أسفل قاع، وبنيت في البلاد القلاع، وأنشأت العيادات والمدارس، وعلى كل متر من الحدود وضعت حارس، ومسحت الحزن عن وجه كل عابس، ودرّبت الشباب فهم إما خيّال أو فارس، ونظفت الهواء من الذباب والقارص، ولم يبقَ في البلاد جائعٌ أو محروم، و ما ظلَّ فيها مسكين أو مظلوم، ودعوت الله أن يجعل هذا الخير يدوم، حتى صار الشعب في بركاتي يعوم، وإني مسافرٌ إلى مكة مع الحجيج، لأسكن دول الخليج، بعيدًا عن الضجيج، فأشمَّ روائح البخور والأريج، وإذا عمّ الخير عليّ وفاض، سأستقر في الرياض، عسى ربي عني راض.

وطول إقامته في السعودية، لم يزر قط السفارة الأمريكية، ولم يقبض دولارًا واحدًا، ولا أية عملة ورقية، كان مكتفيًا بأكل التمور، والخبز اليابس المكسور، وشمّ الطيب والبخور، وعاش على الزبيب والتين المجفّف، حتى زاره ذات يوم موظّف، لم يكن يعمل في «السي آي إيه» ولا البنتاغون، ولا يوجد في مكتبه فاكس أو تلفون، واسمه ليس «جورج» أو «جون»، وفي أمريكا لم تسمع عنه الإدارة، ولم تعطه أية إشارة، ولم يأمر طيرانه ذات يوم بشنّ غارة.

لا تظلموا الرجل كثيرًا، فإن له خطة وتدبيرًا، قد كان يطلق دعواتٍ على إسرائيل عابرة للقارات، يجفّ من حرارتها نهر الفرات، ومن هولها قائد المنطقة الوسطى مات، أما قائد منطقة الشمال، فعندما سمع بهذا الحال، ترك بنيه ونساءه وما جمع من مال، فمن هول هذا الخطر، ولّى ولم يعقب على أثر، ولكنْ، مديرُ الموساد كان أشجع، فنظر بين الخطط ما هو أنجع، واختار من بين جنوده من هو أشجع، وأرسله في مهمةٍ سرية، لقتل زعيم الفدائية، كي ينام اليهود هانئين في البرية.

أما عن الحرب الأفغانية، فلم تكن يومًا حربًا أهلية، بل كانت نضالًا ضد الإمبريالية، وضد الإلحاد والشيوعية، فلم تكن حينئذ حربًا باردة، بين السوفييت وأمريكا الماردة، بين الذئاب والغزلان الشاردة، ولم يعرف العالم حينها حربًا بالوكالة، يحرس فيها العبيد السيد وأمواله.

أما القائد المضياف «عبد رب الرسول سياف»، فلم يكن «ريغان» عمه ولا خاله، فأبقاه الأخير على حاله، إذ أبى أن يكون

من أزلامه، أما «أحمد شاه مسعود»، فبالخير علينا يجود، وكان كارهًا لموسيقى الجاز وعزف العود، وكان في السماء مباركًا وفي الأرض محمودًا، أما المجاهدون، فلم يزرعوا حشيشًا ولا أفيونًا، ولا سيجارًا ولا غليونًا، وكانوا يقولون في المخدرات، إن فيها تهلكةً ومماتًا، وتلهينا عن الذكر أيامًا وساعات، فهيهات أن نبيعها هيهات، فكان بيعها يتم في اليونان وقبرص، حتى لا يحرج «ريغان» من الكونغرس.

ولأن من صفاتهم الحياء، عندما هبت عاصفة الصحراء، اجتمع القادة العظماء، وقرروا الانضمام إلى الحلفاء، وقال قائلٌ منهم، وكانوا قد أنابوه عنهم، لأنه كحيل الرموش، وأمّورٌ كرموش، ومقرَّبٌ من العم «بوش»، ومجلس الشيوخ والعموم، ولا يزرع أراضيه إلا بالكروم، ولا يبدأ حديثه إلا بأول سورة الروم، فبعد أن بسمل وحوقل، قال إن خير الكلام ما قلّ ودل، ثم أردف: اللهم اهدنا للخير وجنبنا الحرام، لقد زارني جبريل في المنام، وبشرني أني مكرّم المقام، وسأزور بيت الله الحرام، وأوصاني أن لا أخون الصديق، ومن ساعدنا وقت الضيق لّما كانت سفنه في كل ميناء ومضيق، وأمدنا بالمال والسلاح والدقيق، وأرسل لنجدتنا الفريق تلو الفريق، وها هو الآن يصيح كالغريق، أني قد جئت أحمي مكة والبيت العتيق، من نظام العراق الزنديق، فما لكم تبدون واجمين، وعن أخذ القرار حائرين، إني أراكم إلى حفر الباطن زاحفين، ها أنا إليكم قد رويت، ما في المنام قد رأيت، لنصرة أهلنا في الكويت، فقد كان لنا أقوى جناح، فيه الخير والفلاح، في بيت التمويل وجمعية الإصلاح، فليتك يا أخي تزحف مع قوات التحالف، لعل الدولار علينا دالف.

وبعد تحرير الكويت، عاد الجميع إلى البيت، وعاد المجاهدون الثوار لتحرير بقية الديار، وطبعا دون عون من الباكستان، أو صراع بين الرياض وطهران، أو مساندة من الأمريكان، أو مشاركة من شباب الإخوان، في فلسطين ولبنان، أو بلاد الكنانة والسودان، فلم يترك شابٌّ عربي بلده، إلا بعد أن اطمأن على أخيه وولده أن الجوع والظلم ما جلَده.

ويحكى أيها الأفاضل، وقد قال لي قائل، في الحق لا يجادل، بينما نحن في أحد المجالس، في شهر آذار أو مارس، إن المجاهدين الأشاوس، قد ارتدوا أزهى الملابس، وليس بينهم حزينٌ ولا عابس، فقد هزموا الجيش الأحمر، وحمونا من الخطر الأكبر، خطر الشيوعية والإلحاد، الذي هدد معظم البلاد، وخرب أخلاق العباد، ها هو الفجر قد ترقرق، والنصر قد تحقق، والكفر قد تمزق، وعلم السوفييت تفتق، فلا تعب أحد منا أو ملّ، ولا ترك القتال أو فلّ، رافعين معًا شعارنا الأجمل: الإسلام هو الحلّ.

فبمجرد استلامنا للحكم، لن يبقى في البلاد صمٌّ ولا بكم، وسننشر العلم، ونثمن قيمة الإنسان، ونحل مشكلة الإسكان، وسنستبدل معجون الأسنان بالمسواك، ونزرع الفواكه والخضروات، ونحل أزمة المواصلات، ونلغي جهاز المخابرات، ونمنع الحشيش والقات، ونرعى المواطن من الطفولة حتى الممات، وسنجري تحقيقًا في قضية كل قط مرض أو كلب هلك، وتحقيقا آخر مع كل تاجرٍ وما ملك، وسنطور الطب والفلك، وسنلغي كل الصناعات الرديئة، والجيدة أيضًا إذا كانت تلوث البيئة، وبأجود صنوف

الطعام ستكون البطون مليئة، وسنجعل في كل شارع كنّاس، ونقطع دابر كل خنّاس، لأننا خير أمة أخرجت للناس.

وخلال السنوات الثماني، من الحرب مع السوفيات، كل من كان قد جرح أو مات، لم يمت بفعل شجاعة الروس، ولا تواطؤ الهندوس، أو تشجيع الفراعنة والهكسوس، بل ماتوا ليشعلوا قنديلًا وفانوسًا، ولتزرع الأجيال من بعدهم خيارًا وفقوسًا، فمن غير المعقول، إلا عند كل مجنون ومهبول، من لا يأكلون سوى الفلافل والفول، أن تكون الملائكة تصول وتجول، وتترك الكفار بين جريح ومقتول، والتراب بدمائهم مجبول، فمن غير الممكن، أن يُقتل مجاهدٌ برصاص الأعداء، مع تأييد السماء، إلا من اصطفاه السميع العليم، للعيش في جنات النعيم، أما عن الملايين، من المهجرين واللاجئين، أما أما أما

والأسرى والمجروحين، فسينظر في أمرهم بعد حين!

وفي شهر نيسان، سقط نظام الكفر والطغيان، ليرفع علم التقوى والإيمان، على يد المجاهدين الأفغان، هذا ما قاله صاحبنا، حتى صار حديث مجالسنا.

وبعد إقامة دولة الإسلام في كابول، والجيش في شوارعها يصول ويجول، لم ينشؤوا حكومةً عسكرية، ولم يفرضوا أحكامًا عرفية، بل بكل محبةٍ وتهاون، وإيثارٍ وتعاون، وروح الفريق الواحد، ودون هاربٍ أو شارد، بدأ أخوة الجهاد ورفاق النضال يتقاسمون السلطة ويتداولونها على الطريقة الأفغانية.

وبعد سنوات من الذبح والتقتيل، والتهجير والتشريد، والجهاد، والجهاد المضاد، اكتشفنا فجأة، أو بعد طول تفكير، أن المجاهدين ليسوا مجاهدين!

إذ جاء الطالبان، خريجو مدارس الباكستان، وأحباب الأمريكان، وعلى الطريقة السعودية، طمس على ذاكرتنا، ليثبت بلاهتنا، وقلة فراستنا، فرض النظام الإسلامي الجديد، وأطلق الوعود والوعيد، فأقيمت دولة الطالبان، لتكون عونا لباكستان، في حربها ضد الهند، وصراعها مع إيران، ومن خلالها تسيطر على كل الدول التي ينتهي اسمها بحرف ال «آن»، ولكنّ هذه الدولة لم يعترف بها أحد، لا حزبٌ ولا بلد، وحتى لا نأتي ببهتان، اعترفت بها دولتان: السعودية والإمارات، وللتذكير فقط، عندما أعلنت أمريكا السخط، سحبتا الاعتراف، وقالتا عنه خطأٌ فادح وإجحاف.

وخوفا من الجوع والحرمان، أصدر الفرمان تلو الفرمان، باسم مولانا السلطان: أنا «الملا عمر»، حاكم الجن والبشر، الآمر بالمعروف، ومانح المصروف، الحنون العطوف، ذابح البشر «كالخاروف»، الناهي عن المنكر، فاصل المؤنث عن المذكر، وشارب الشاي بلا سكر، أميرٌ على كل المؤمنين، العقلاء منهم والمجانين، بعد البحث والتفكير، والعناء والتدبير، وباسم السميع القدير، قررنا ما يلي:

«تُمنع البنات من دخول المدارس، ويفرض على كل أنثى حارس، وتمنع النساء من العمل، والرجال من الملل، ويحرم الاختلاط، والرقص على البلاط، وتطلق اللحى وتحف الشوارب، ويقتل كل هارب، ويجلد كل شارب، ينشر العسس، وتطلق الشرطة، وتكسر

الكاسيتات والأشرطة، وتمنع الأفلام، وتصادر الأقلام، ويحرم الحب والوئام، وتقفل الإذاعة والتلفزيون، منعًا للفسق والمجون.

أما المعارضة والأحزاب، فليس من ورائها إلا الخراب، والصحف والمجلات لهوٌ وانفلات، أما حرية التعبير، فتسحق كالصراصير، وأما النحت والتصوير، فعقابهما الجلد مع التعزير، وحرية التفكير مكفولة للبهائم والحمير، وحقوق الإنسان، في طي النسيان، ويعدم الرئيس الأسبق، ويجلد كل مجنون وأحمق، ممن حملوا العلم الأزرق، ومن ساير «سياف»، وهرب حاملًا اللحاف، ومن أيّد «حكمتيار»، مهاجرًا عبر البحار، ومن تحالف مع «دستم»، حتى لو كان ماردًا في قمقم، فأولئك كلهم كفرة، ومصيرهم في المقبرة، أما أتباع طالبان، من الفتيان والشبان، فأولئك هم البررة، في صحف مطهرة. لم يقترفوا إثمًا ولا مجزرة، ولم يكونوا جزءًا من التوازن السياسي الإقليمي لضمان بقاء المعادلة السياسية في قبضة النظام الدولي الجديد.

وبعد سنوات من اغتصاب السلطة، والناس فوق رؤوسهم سكينٌ وعلى رقابهم بلطة، فمن نجا من الإعدام، سيموت بالجلطة، وبعد أن أحس النظام أنه في عزلة وورطة، ولا بدّ من حلٍّ ومخرج، والدعاء إلى الله بالفرج، فتشوا بين الحلول، من الحامض للحلو، ومن الجاف إلى المبلول، فوجدوا أصوبها حكمًا، وأكثرها عدلًا، كان حلًّا ليس له مثيل، وهو هدم التماثيل، وجعل الدماء منها تسيل، ودك تمثال بوذا، وجعله منبوذا.

أما برهان الدين رباني، فلم يعد رئيسًا ولا «كاني ماني»، أما «حكمتيار»، فقد امتطى صهوة أول حمار، وقطع تذكرةً وطار، ثم

تحالف مع «مسعود»، لعله إلى الحكم يعود، وجاؤوا بدستم الجنرال، وجمعوا الكثير من الأموال، وشكلوا تحالف الشمال، ليستمروا بالجهاد والنضال.

وبعد سنوات عجاف، عاشوا فيها على الكفاف، جاء صحافيٌّ خجل، يمشي على وجل، وطلب أن يكون اللقاء، قبل حلول المساء، مع القائد الودود، أحمد شاه مسعود، لقاءً بلا حدود، وأن يسأل ما شاء دون قيود، فجاءه حارس مهيوب، كأنه يمشي بالمقلوب، قصير القامة مربوع، فقال أيها الصحفي الجربوع: سيكون اللقاء بعد أسبوع، وعندما بدأ اللقاء وهمّ بالتصوير، ضغط على صاعق التفجير، فتناثرت الجثث والأجسام، وامتلأ المكان بالركام والحطام، كأنما قلبه عفريت من الجان.

كما يحكى يا سادة يا كرام، ومنعاً للعتب والملام، وتحري الصدق وتجنّب الحرام، وأن لا يفوتني ذكر الحكاية، من البداية إلى النهاية، وأن أنسى أهم شخوصها، من شرفائها ولصوصها، عوامها وخصوصها، ومناخها وطقوسها، بياناتها ونصوصها، وأخص بالذكر، صاحب الفكر، والوجه النضر، الذي ترك الملايين، وعاش كالمساكين، هجر الفنادق، وسكن الخنادق، وحكم عليه بألا يفارق، باعتباره مواطنا مارقًا، عاف أموالاً كالتلال، واختار العيش على قمم الجبال، إنه ربيب النظام السعودي، وصناعة الأمـريكان، المجاهد الخطير «عجانة بن طاحن» الذي في الحق لا يهادن! فبعد أن انقلب السحر على الساحر، وصار في فن الخطابة ماهرًا، تأكدت أمريكا من صدق إيمانه، وصار المطلوب الأول، أما هو فقد اكتشف

في وقت لاحق أن أمريكا كافرة تمامًا مثل السوفييت، فقرر أن يعلن عليها الجهاد، أو تدفع له الجزية.

ولما نادى المنادي، من كل مئذنةٍ ووادي، لتتّحد كلُّ الأيادي، في مواجهة الأعادي، ولنأخذ دورنا القيادي، فبعد اليوم حرامٌ أن تكون الحيادي، بين جيش الكفر وجيش الهادي. وعندما سمع النداء، رفع يديه نحو السماء، ثم فكر ونظر، ثم عبس وبسر، ومن عيونه تطاير الشرر، وحسم أمره وقرر، أن يشعل حربًا شعواء، لا تبقي ولا تذر، على من عاند الحق وكفر، من الطير والزرع والبشر.

وما أن هلّ الحادي عشر، من شهر سبتمبر، حتى كان البرج التوأم قد تفجر، ولم يبقَ فيه حجرٌ على حجر، وهجومٌ على واشنطن، دمّر مبنى «البنتاغون»، وصعق الرئيس من الخبر، ومن مخبئه تحت الأرض أمر بجمع فيالق الجيش، والكف عن رغد العيش، وأن لا يسأل عن أعماله «كيف وليش»، وأن يُشّن هجومٌ كاسح، لا يبقي حلوًا أو مالحًا، ولا صالحاً أو طالحًا، في كل دول العالم الثالث، فهذه فرصتنا، لنثبت عزوتنا، ونعزز قوتنا، وعلى العالم سطوتنا، ونحتل منابع النفط، ومن أموال العرب «نشفط»، ونجبي من ورائها البلايين، ونسيطر على بحر قزوين، والممرات والخلجان، والأسواق والبلدان، ونقيم حكومة صديقة، ونبني لهم حديقة، وقواعد عسكرية، لنحمي الديمقراطية، وسنجمع كل الأصدقاء والأحباب، كي نحارب «الإرهاب»، وسنستمر بحربنا الواعدة، ضد تنظيم القاعدة، فعاش الإرهاب والتطرف، والتعصب والتخلف، فبلا هؤلاء، لن نجمع الحلفاء، وستبقى حربنا في الخفاء، ضعيفة وعلى استحياء، أما بعد اليوم، فلا عتب ولا لوم، وافهموا ذلك يا قوم.

سنضرب بلا شفقة، بالعصي والفلقة. هي حربٌ بلا هوادة، ستنسيكم طعم السعادة، حربٌ ضروس، بالقنابل والفؤوس، تحرق الأخضر واليابس، ستبدأ في أفغانستان، ثم الهند وباكستان، ودول أخرى على القائمة، لن تقوم لها قائمة، ففي العراق، سنجعل الدماء تراق، ثم سوريا تتبعها كوريا، فكل زعيم علينا تمرد، سنجعل زرعه أجرد، وليله أبرد، وفكه أدرد، وكل حركات التحرر ستصبح إرهابية، ودعمها وإيواؤها قرارات غبية، ولن نأبهَ لحسن النية، وسنسحق عالم الضعفاء، ولن نحفل لأنهارٍ من الدماء، وسنسمح لكم فقط، بالعويل وبالبكاء، لنقم بالهجوم، كآكلي اللحوم، فمن أنذر غير ملوم، فعلام الحزن والوجوم؟!

وما إن حل الليل وخيم، ونصف الشعب في المخيم، والنصف الآخر اسودّ نهاره وغيم، حتى دُقّت للحرب الطبول، بغض النظر عن الرفض أو القبول، وأما «برويز مشرف»، فقد تفضل وشرف، وعن الركب ما تخلف، وكما هو متوقع، على القرار قد وقع، وقبل أن أنظر حولي، أو حتى أكمل قولي، صار من التحالف الدولي، وصار حليف الأمس، ممنوعًا من الهمس، أو الاقتراب أو اللمس، وهكذا كان، ما لم يكن بالحسبان.

وبعد سقوط الطالبان، تفرق الأحبة والخلان، وانهارت القاعدة، دون مساعدة، وفرّ المجاهدون إلى الجبال، والبراري والتلال، واستمر فوقهم القصف، حتى صارت سماؤهم خسف، وجاء تحالف الشمال، هادرًا كالشلال، منتقمًا من خمس سنين سود، ما أبقت في البلاد غصنًا ولا تركت عودًا، حكم الناس فيها بالنار

والبارود، وبدأوا باقتراف المجازر، كالريح الهادر، في وضح النهار، من كابول إلى قندهار، أما في برلين فكان فصل المقال، لوقف الاقتتال، والبدء بضخ الأموال.

ومن بين الجالية الأفغانية، في المدن الأمريكية، فكر «بوش» واحتار، على من يقع الاختيار، وفي حفلة لشرب الشاي، اختاروا الرئيس قرضاي، صاحب الحظ السعيد، ليكون الحليف الجديد.

انتهى الجزء الأول من الحكاية...

وكل حرب وأنتم بخير

حوار بين الحلم والشهادة

الموت لا يعنينا،
نكون فلا يكون،
يكون فلا نكون،

محمود درويش

أنا لا أحبك يا موت،
لكنني لا أخافك،
وأعلمُ أنَّ سريرك جسمي، وروحي لحافك،
وأَعلمُ أني تضيق عليّ ضفافك،
أنا لا أحبك يا موت لكنني لا أخافك.

سميح القاسم

ما أن انتهت صلاة الجمعة في المسجد الكبير وسط البلد؛ حتى بدأت جموع المواطنين ترص صفوفها قريبًا من ساحة المسجد وكأنها على موعد سابق، أو كأنما استجابت لنداء ما، أخذت تهتف عفويًّا وتطلق من حناجرها صيحات الغضب، وما هي سوى لحظات قليلة حتى تشكلت مسيرة جماهيرية ضخمة، بدأت تتقدم وتشق طريقها تجاه الحدود الشرقية للبلدة، حيث أقام الاحتلال إحدى مستوطناته.

وكان بعض النشطاء من التنظيمات السياسية قد أحضر الأعلام واللافتات وقد كتبت عليها الشعارات الوطنية، وسرعان ما قاموا بتوزيعها على المشاركين، وكان نصيب الأسد من حظ الصغار الذين فرحوا بها كثيرًا، وأثناء المسيرة قام البعض من ذوي القامات الطويلة بحمل رفاقهم الأخف وزنًا على الأكتاف؛ لتسهيل مهمتهم في الهتاف، ومع تقدمها في الشوارع والساحات، كان مزيد من الجماهير ينضم إليها بحماس واضح، وقبل اقترابها من الحاجز الإسرائيلي، وعلى مسافة مرمى النيران، بدأت زخات الرصاص تدوي في السماء وتنهمر كالمطر، بدأ قمع المسيرة بسرعة كنا نتوقعها، إذ كان الجو السياسي ملبدًا بالغيوم السياسية الكثيبة.

النيران تتصاعد من العجلات المطاطية، والجنود يعتلون دباباتهم، وينشرون سياراتهم المصفحة، ويطلقون النار على الجماهير دون تمييز، والمسافة بينهما حُشدت بالحاويات والقطع المعدنية والحجارة وقنابل الغاز، وبرك الدماء صبغت المكان بالقرمزي والقاني، وتعالت هتافات المتظاهرين، وشرارات الغضب التي تقدح من عيونهم، صرخات الجرحى، وصفير سيارات الإسعاف، ومكبرات الصوت كلها سيطرت على المكان.

أشياء كثيرة كانت تحدث في تلك اللحظات الفريدة تجعل من المستحيل التمييز بينها، أو تذكر شيئاً معيناً دون الآخر.

ها قد سقط الشهيد الأول، الله أكبر، حناجر الجماهير تصدح بأعلى صوتها في نسق متداخل ومرتبك، الناس تتزاحم لرؤية الشهيد وتقديم ما يلزم من مساعدة، ويعاود الرصاص جنونه معلنًا نفسه سيد الموقف، إذ لم يعد يسمع سواه.

أصوات الناس وآراؤهم تختلط مع بعضها وتتعالى، البعض يردد: إلى الأمام، والبعض الآخر: لننسحب، أنظروا إلى المروحية وهي تطلق من رشاشها صليات بغزارة ووحشية وكأنها تبيد مجموعة حشرات غريبة، الدبابات بدأت تتقدم، على أجسادنا سيكون العبور، سنموت جميعًا، لا.. لا، لنصمد، وهكذا تصاعدت الأمور بشكل رهيب. وفي ذروة الموقف يسقط الشهيد الثاني: ها هو تحت الشجرة، لكنه لم يحظ بنفس الأهمية التي حظي بها رفيقه الأول، كأنّ المنظر بات عاديًا!

قوات الأمن الوطني تعيد انتشارها وترتب صفوفها على نحو سريع مضطرب، وتأخذ مواقعها خلف المتاريس التي أعدت على عجل ثم تبدأ بالرد على مصادر النيران، وأخذ بعض أفرادها يبعدون الناس عن الساحة، ويأمرونهم بصلف ظاهر بالابتعاد.

النقيب «زياد» يأخذ مجموعته ويتسلل إلى الحقل المجاور كي يتمركز خلف جدار مهدم، يلقم بندقيته ويصوب نظره بحدة نحو الأفق، يسحب نفسًا عميقًا ليملأ رئتيه في محاولة لتهدئة دقات قلبه المضطرب، ومحدّثًا نفسه بصوت أقرب ما يكون إلى البوح: نعم هذا اليوم الذي طالما انتظرته، وعلى عجل أعد خطة للهجوم تصورها في ذهنه دون كثير من التمحيص والحسابات، كل ما دار في خلده حينها هو كيف يوقع خسارة ما في صفوف العدو تمنى لو أنها تكون فادحة، وبلهجة القائد أصدر تعليماته لرفاقه، وزعهم على ثلاثة محاور، ولم يترك لهم مجالًا لسؤال أو استفسار.

بدا جو المعركة رهيبًا، الصور تتداخل، الصرخات تتعالى، وزياد يقلب ناظريه في سماء المشهد ويترقب، صوت الرصاص يصم الآذان، وفجأة تنطلق رصاصة حاقدة وتستقر في صدره، لم تمهله لحظة أخرى... سقط زياد...

هكذا؛ وبكل بساطة، ساد الصمت برهة بدت كأنها زمن لا يريد أن ينتهي، رغم ذلك انتهى المشهد بسرعة خرافية، أحس «علي»، صديق زياد المقرب، أن هذه المعركة قد أعدت خصيصًا لقتل زياد، لا يدري أيبكي أم يصرخ! لم يعد يعرف ماذا يفعل، لا وقت للحزن ولا مجال للحركة، فقد عاود الرصاص جنونه، شلت

حركته واستبد به اليأس، وفي لحظة واحدة نهض وأطلق من رشاشه زخة كبيرة من الرصاصات التي تمنى لو أن بمقدورها أن تقتل العالم بأسره، ثم ارتمى على صدر الشهيد وأخذ يجهش بالبكاء.

في الجهة الشمالية للبلدة كان موقع معسكرنا، ورغم أن الحاجز الذي نرابط عنده كان على مقربة من الحاجز الإسرائيلي؛ إلا أن الجميع كان في حالة تأهب، الأيدي على الزناد، وغزارة الرصاص أسرع من دقات القلوب، ورائحة الموت بدأت تفوح في المكان، ولون الدم كان يغطي أفق السماء ويملأ أديم الأرض، حينها بدت لي حياتي الماضية لحظة .. أو ومضة .. وأن العالم كله قد اختزل نفسه في هذه البقعة الدامية، لم أتذكر سوى ابني الصغير الذي لم يكمل شهره الثاني بعد، ولم يكن في الأفق سوى وجـه حبيبتي ودموع عينيها، فأحس بحرارتها تلهب صدري، وتشعل ألف بركان، تخيلت مشهد جنازتي، ثم شددت يدي على الكلاشنكوف وكأنه طوق نجاة، أو حبل مشنقة.

أوقفتُ إحدى السيارات القادمة وسألت السائق بلهفة: كيف الوضع في نابلس؟ أجاب بلهجة مقاتل: لقد تحولت إلى ساحة حرب حقيقية، فأدركت أن الأمور قد خرجت عن نطاق السيطرة، وتتجه نحو المجهول.

بدت الساعات التالية وكأنها عمرٌ كامل وصحراء باتساع الكون، وتحت كل ذرة رمل منها يختبئ ألف سؤال وسؤال: لماذا نكتشف فجأة أن الحياة عزيزة إلى هذا الحد، رغم أننا لا نكف عن التذمر منها؟ ولماذا يطلق العدو علينا النار بهذه الغزارة؟ وكيف

سيكون ردنا نحن؟ وكم سنصمد؟ وماذا لو تقدمت الدبابات نحونا وأمرنا الجنود أن نسلم أسلحتنا! وماذا سيجدي نفعًا رشاشي مع ثلاثة مخازن هي كل ما لدي من العتاد أمام خمسٍ وثلاثين دبابة رأيتها بأم عيني تأخذ مواقعها بالقرب منا صبيحة هذا اليوم؟ وإذا سلَّمْتُ سلاحي كيف سأعيش بقية حياتي؟

كانت الدماء تغلي في عروقي والشعور بالعجز والشلل يقتلني، أتخيل نفسي محلقًا في سماء المعركة أثْـأر لكل ساعة قضتها كل أم وهي تنتظر ابنها الأسير، ولكل دمعة سالت وقطرة دم أريقت، فتنتابني موجة غضب جامحة ثم أعود فأراني مكاني يقتلني الإحساس بالعجز، ثم أعود أتخيل تابوتي ملفوفًا بالعلم وباقات الزهور تحيط قبري وتزينه، كلمات العزاء التقليدية، كم شخصًا سيحزن على موتي؟ وكم سأمكث في ذاكرة المحبين؟ إذن سأصير ذكرى ثم لا أذكر... لا يهم... إنني أشعر بالدوار، لم أعرف معنى الموت إلا في تلك اللحظة، تمنيت لو أن المعركة تنتهي في لحظات لأتخلص من هذا الحوار الإشكالي، هل أنا وحدي مَن ينتابه هذا الإحساس، أو تقفز إلى مخيلته مثل هذه الأسئلة؟

هكذا مر اليوم الثاني بطيئًا ثقيلًا متخمًا بالأسئلة والأحداث، وما إن اقترب موعد الغروب حتى اختفت الشمس دفعة واحدة وكأنها هوت مشتعلة في نفق «أنكيدو» معلنةً عن سـر آخر من أسرار الخلود... والليل يرخي ذيوله كطفل تائه في عتمة الكون الفسيح، يبحث عن ضالته الأبدية فلا يجدها، مشرعًا في ذات الوقت ساريته في بحر لجّي من الغموض، داعيًا النفس للغوص في أعماقها، وسبر مجاهيلها دونما خوف...

أمضينا ثلاثتنا «سعيد وحسام وأنا» فترة حراستنا على الحاجز حتى ساعات الصباح الأولى، نتجاذب أطراف الحديث، نتسامر ونتشاجر ونبث أشجاننا ومخاوفنا، وكنا منذ بدء الحوار قد اتفقنا أن يقول كل منا رأيه دون مواربة أو خجل، فربما يكون آخر لقاء يجمعنا! من يدري فالاحتمالات كلها متاحة، وكان إحساسنا بجلال الموقف ورهبته يدفعنا لأن نقول أحاسيسنا بكل صدق وعفوية، ولأن الليل يغطي الوجوه بعتمته فلا يبان منها تعابيرها وتقاسيمها، فقد ساعدنا ذلك على كسر الحواجز النفسية والتقرب من بعضنا أكثر، لدرجة أن كل واحد منا أحس أنه يحاور ذاته.

«حسام» شاب تزوج حديثًا، رياضي متحمس مندفع ذو ميول دينية، يتشدد حينما يدافع عن قناعاته ومعتقداته، و«سعيد» أكبر منه سنًا ومنفتح على الحياة، هادئ الطباع، يحاول أن يجعل كل شيء من حوله منطقيًّا خاضعًا لحساباته الدقيقة، وهو أب لثلاثة أطفال، وقد شاءت الأقدار أن يجتمعا معًا في هذا المكان مرة أخرى بعد أن فرقتهما الظروف لسنين طويلة أمضاها كل منهما على طريقته الخاصة؛ فهما رفيقا سجن، سُرقت منهما معًا سنوات كثيرة من عمرهما في فترة يفترض أن تكون من أجمل فترات العمر، بدت لهما تلك الأيام القاسية وكأنها جزء من ماضٍ سحيق موغل في البعد، لا يخص أحدًا غيرهما، أو كفصل قرآه من رواية ما، يتذكران منه بعض المشاهد المضحكة أكثر من المواقف المؤلمة رغم أنها الأكثر بطبيعة الحال، وأحيانا يسرّان لبعضهما الحنين لتلك الأيام بطريقة خفية غير مفهومة، كأنما كانا يجدان بعض الأمان هناك!

اتصف كلاهما بالعصبية، ورغم ثرثرتهما الزائدة التي تصل حد التصادم أحيانًا، والتصايح في أحايين كثيرة، إلا أنهما سرعان ما يتصافيان، وتعود المياه إلى مجاريها بينهما، إلا أن الحديث عن الموت جعل حديثهما أكثر جدية.

كنت حريصًا على تجنب الدخول في مواجهة مع أي منهما، إلا أنني وجدت نفسي وسط الحوار دون مقدمات، فقد حرّك مشاعرَ كنت أتجاهلها، وأفكارًا كنت أطردها.

- مالي أراك واجمًا؟ هل أنت خائف؟ سألني حسام بتحد.

- قلت: لا... ولكن، لقد صقلتني تجربتي السياسية وجعلتني لا أُساق وراء الانفعالات العاطفية في لحظات المواجهة.

- حسام: لقد دقت ساعة الحقيقة.

- قلت: إننا نعيش الحقيقة بكل بشاعتها ودمويتها منذ الولادة.

- حسام: إذن على ماذا ستخاف؟ وما الذي ستحرص عليه؟ أنصحك أن تختبر شجاعتك كي يستريح ضميرك.

- قلت: كيف؟ ومن قال لك إنني أعاني من أزمة ضمير؟

- حسام: حيرتك تدل على وصول صراعك مع ضميرك حد الذروة.

- سعيد: وهل هنالك ساعة أخرى يتجلى فيها مثل هذا الصراع أكثر من هذه الساعة؟

- قلت: تردد المرء أمام الموت مسألة طبيعية «كتب عليكم القتال وهو كره لكم» صدق الله العظيم.

- حسام: لكن، المؤمنُ يتوق إلى اللحظة التي يلقى بها وجه ربه شهيدًا.

- سعيد: أوليس المؤمن أيضًا من يتوق إلى إعمار الأرض، ونشر العلم، وخدمة العباد، و...

- حسام: كل هذا من الدنيا الفانية وما عند الله هو الباقي.

- قلت: لا تضع الدنيا نقيضًا للآخرة كما وضع بعضهم الدين نقيضًا للتقدم.

- حسام: هل تقصد أن السعي لنيل الشهادة خطأ؟

- سعيد: يجب أن نميز بين الشهادة، وبين أن تلقي بنفسك إلى التهلكة.

- حسام: ليس المطلوب فقط السعي لنيل الشهادة، بل أيضًا تذكر الموت بصورة دائمة...

- سعيد: ولماذا أجبر نفسي على التعايش مع الهم والغم وذكر الموت؟

- حسام: حتى تتذكر أن نهايتك المحتمة هي الموت، وبذلك تعد العدة للآخرة...

- سعيد مستغربًا: وكيف أجمع النقيضين معًا؟ ذكرى الموت ستؤرقني بالكوابيس وستطالبني بالزهد والتقشف، بينما الحياة المفعمة بالأمل تجتاح أحلام يقظتي وتنسيني هذا الموت...

بدا لي لوهلة أن الموت والحياة على طرفي نقيض، إما أن نعيش الحياة بكل معانيها أو نحيا أمواتًا بانتظار الموت النهائي.

وبينما أنا مستغرق في هذه الفكرة التفت حسام نحوي محاولًا استفزازي قائلًا: عرفت أنك أمضيت مساء البارحة مع الشهيد زياد، ولكنه لم يكتف مثلك بالوقوف عاجزًا في هذا المكان البائس بل انتقل إلى ساحة المواجهة.

أجبته بهدوء: لكنه انتقل بذلك إلى رحمة الله.

احتد حسام قائلًا: بل قل إنه استشهد.

هنا تدخل سعيد على الفور: إننا لم نقاتل يومًا من أجل الشهادة؛ بل من أجل الحياة، ثم إننا ملتزمون بالتعليمات.

حسام موجهًا كلامه نحونا بنبرة خطابية: إنكم تجدون عزاءكم في التعليمات، إياكم أن تحاولوا الانتقاص من قدر الشهيد.

سعيد: معاذ الله، إنه أشجع وأكرم منا جميعًا... ولكنه دفع الثمن غاليًا... دفع حياته، هل تدرك معنى ذلك؟

حسام: نعم أدرك أنه استراح من هذه الدنيا وهمومها ومشاكلها واستبدلها بالجنة ونعيمها.

قلت: لكني لا أريد أن أستريح من هذه الدنيا، بل أنا مستمتع بمشاكلها وهمومها، ما رأيك يا سعيد؟

أجاب سعيد على الفور: بل أريد أن أغرف منها بكلتا يدي. ثم أكمل حديثه بلهجة الأستاذ، قائلًا: رجال الدين يتكئون على

قضية الموت لبناء هيكل مؤسستهم الخرافية... وهم يضغطون على أكثر الأعصاب التهابًا في الجسد الإنساني... يضغطون على فوبيا الموت... ويغزلون مُقابله الحلم البديل... حلم الإنسان في الوجود أن يكون خالدًا، لأن هذا الحلم لن يختلف أي إنسان عليه.

– قلت: ألا تلاحظ أن هناك إلحاحًا شديدًا على التذكير بالموت لخلق ثقافة الخوف من الموت، وفى الوقت نفسه يُقدّمُ وعد بالحياة مرة أخرى ليدغدغ مشاعر الإنسان المتلهف والمتشبث بالحياة والبقاء؟

كان قد مضى على جلستنا هذه ما يقرب الساعتين لم نسمع خلالهما صوت الرصاص ولا دويَّ المدافع، ما ولد لدينا شعورًا ببعض الارتياح، أو لنقل خفت حدة توترنا النفسيّ، فقررنا إعداد «ركوة» قهوةٍ تساعدنا على السهر وتحسِّن من مزاجنا بعض الشيء، ثم نكمل ما بدأنا به من حوار.

سارع سعيد لجمع بعض الأعواد وقطع الخشب الكبيرة، ثم جعل منها كومة متوسطة، وبعد لحظات بدأت ألسنة اللهب تتصاعد وتبدد حلكة الليل من حولها، وتبث بعض الدفء في المكان، وتضفي على الجو هالة من السحر، وأخذ كل منّا يغرق في بحر من الذكريات، تذكرت أيام الصبا؛ عندما كنا نصعد في أيام الشتاء إلى الصخرة الكبيرة في «تل الشوك» ونتجمع حول النار تحت شجرة البلوط، نلهو ونغني ونتناقش في أمور كثيرة لم أعد أذكر منها شيئًا الآن، كانت الدنيا أيامها جميلة والناس طيبين، لم يكن يغرينا منها سوى الملاعب والساحات، ولا يعنينا من همومها سوى بعض المتاعب مع الأهل والمدرسة لا أكثر ولا أقل، غنّيت بصوت خافت

خجول ما يشبه الدندنة: «يا مين يرجعني صغير وياخد مالك يا دني... أووووووف».

لم يدعنا حسام نكمل استمتاعنا بهذه الذكريات العذبة، ولم يمنحنا فرصةً لخلق جو احتفالي يليق بهذا المشروب الطازج اللذيذ فعاجلنا بقوله:

أنتم السياسيون توهمون أنفسكم أن الحل سيتحقق على طاولة المفاوضات، هل سمعتم عن شعب تحرر دون دماء أو شهداء؟

سعيد: لقد قاتلنا وضحينا كثيرًا، وكل ما استطعنا تحقيقه هو حل متواضع ولكنه قابل للتطوير، وأرى فيه نواة للدولة المستقلة، وحتى يستكمل بناؤها نحتاج إلى الأمن والسلام، لقد تغيرت أدوات النضال ومفاهيم الصراع، ألا تقرأ الجرائد؟

حسام صارخًا: بل أرى سجونًا واحتلالًا وتنكيلًا وحواجز على الطرقات وغطرسة وقتلًا بالمجان، ثم تقول لي بعد ذلك الأمن والسلامُ! أي سلام هذا؟

قلت معترضًا: لكننا نناضل من أجل البناء والمستقبل حتى نأخذ مكانًا يليق بنا بين الأمم، إننا نحب الحياة...

حسام: إذا ما استطعنا إليها سبيلًا، ولكننا نصعد إلى حتفنا باسمين...

سعيد: معظم الناس تفهم معنى التضحية وقيمة الشهادة، ولكنها لا تصعد إلى حتفها باسمة! وسأستخدم نفس عبارات درويش التي تتباهى بها.

حسام منفعلًا: المشكلة ليست في العبارات؛ بل في كونك تضع كل هذه العراقيل. لقد اندفع العشرات والمئات من شباننا الشجعان إلى ساحة المواجهة دون تردد، ومنهم من استشهد أو جرح... ولو طرحوا على أنفسهم مثل هذه الأسئلة لمكثوا في بيوتهم.

قلت: ربما لم يسعفهم الوقت، وربما أخذتهم الحمية، وربما لم يكن أمامهم خيار آخر.

حسام: نحن أيضا ليس أمامنا خيار، إما أن نموت أو نحيا.

قلت: إننا لم نولد تمامًا ولم نعش تمامًا... ولهذا لن نموت تمامًا.

حسام: أقصد إما النصر أو الشهادة.

قلت: هنالك مساحة شاسعة بينهما، لماذا لا تراها؟

سعيد: نعم، إنها المواجهة الشاملة بكافة أبعادها.

أحس حسام وكأننا ضده، فأراد أن يدفع الحوار إلى أقصى مداه فاتحًا مواضيع جديدة ظن أنها تصب في السياق نفسه؛ فوجه كلامه نحوي متصنعًا الهدوء سائلاً: قل لي، عندما انضممت للثورة ألم تكن مستعدًّا للتضحية والموت؟

قلت: الكثيرون انضموا للثورات بعد مشهد دراميّ وهم يضعون الموت نصب أعينهم، لكنهم سرعان ما انقلبوا واستبدلوا مبادئهم بأي ثمن بعد انتهاء تأثير الدراما، أو تلاشي صورتها من ذاكرتهم، الانضمام للثورة سهل والصعب هو الاستمرار، الحديث عن الشهادة سهل، ولكنْ، ساعة الحقيقة عندما تدق تتغير النفوس، ما من أحد يحب الموت... صدقني... إلا ما شذ وندر.

صاحَ حسام: وماذا عن منفذي العمليات الاستشهادية؟ ألم يضحوا بحياتهم؟ ألم يودعوا هذه الدنيا ببساطة دونما أسف وبمحض إرادتهم، بعد أن حددوا لنهايتهم شكلًا وميقاتًا لا ريب فيه؟ ألا ترى في ذلك قمة التضحية وأعلى درجات الشجاعة؟

قلت: أتمنى ألا تكون تلك مجرد رغبة صوفية بالموت، بغض النظر عن نتائجها على الآخرين.

تدخل سعيد على الفور وكأنه ينتظر هذا السؤال منذ زمن: أخشى أن يكونوا قد تعرضوا لغسيل دماغ في سياق بحثهم عن خلاص فردي! أو أنهم يبحثون عن مقعد في الجنة لا غير!

وهل أصبح طلب الجنة خطأ بالنسبة لمقاييسكم؟

قلت: ألا يمكن أن نرغبَ بالجنة دون أن نسفك دماء الآخرين؟

حسام: إن الآخرين الذين ذكرتَهم هم أعداؤنا، وما وصفته بسفك الدماء هو جهاد في سبيل الله.

سعيد: ولكن ربما يكون بين الضحايا من هم أبناء جلدتنا، أو من المتضامنين معنا، والمناهضين لسياسات الاحتلال، وكل ذنبهم أنهم كانوا في المكان الخطأ في الساعة الخطأ!

قلت مضيفًا: يا سعيد، أيعني قولك هذا أن من ليس من جلدتنا، أو من هو ليس معنا لا يستحق الحياة، بل يتوجب قتله؟

سعيد: لو قصدت هذا، لكنتُ عنصريًّا بامتياز.

قلت: كما إن الجهاد واجب مقدس، فإن حياة الإنسان أيضًا مقدسة، وربما أكثر قدسية من أي شيء آخر، وقد سمعت أن رسول

الله قد قال في حديثه الشريف بما معناه إن الله يعتبر حرمة دم المؤمن أجلُّ وأعظم من حرمة الكعبة نفسها.

سعيد: أي أنه لا يحق لأي إنسان أن يسلب حق الحياة من إنسان آخر.

حسام: إلا بالحق...

قلت مقاطعًا «حسام» قبل أن يسترسل: ومن ذا الذي يحدد هذا الحق؟

حسام: حق الجهاد والدفاع عن النفس.

سعيد: وكيف يكون الدفاع عن النفس؟ أيكون بتفجير الأماكن العامة؟

حسام: أنت تقلل من شجاعة هؤلاء الأبطال المضحين.

سعيد: لا تكمن الشجاعة دائمًا في الموت، وليست الوطنية محصورة في القتال، وأشكال البذل كثيرة لا حصر لها.

قلت: وأولها بإشاحة وجهنا عن الرموز المثقلة بالأسطورة والمثيولوجيا، وأن ننخرط في هموم الناس اليومية.

أجاب حسام بنبرة حادة: أتظن بموتك ستنتهي حقبة تاريخية؟

قلت: الموت صنو الحياة وهما وجهان لعملة واحدة.

سعيد: بل هما أشد الأشياء تناقضًا.

قلت: الحياة تولد من رحم الموت.

سعيد: ولكنْ، الموتُ هو نهاية المطاف لكل شيء، هو النهاية الحتمية للحياة.

قلت: وهو بذلك يخلق بداية كل شيء جديد؛ أي أن الموت هو الدرس القاسي الذي يعلمنا معنى الحياة.

سعيد: لعلك تقصد الحياة الآخرة؟ أم تراك تتحدث عن الحياة بعد الموت؟

قلت: لا لا، بل أعني أنه من النقيضين يولد الجديد، فالغابة تحترق كي تطلق البذور من الجران المغلقة، والحيتان تسبح نحو الشطآن لتنتهي هناك وتمنح الحياة بذلك لصغارها، وحمم البركان الملتهبة بعد أن تخمد تهب الأرضَ أخصبَ عناصرها، وهكذا.

سعيد: لا تحاول أن تقنعني أن الموت مسألة في غاية البساطة!

قلت: لا لا... بل إنه هادم اللذات، ومفرق الأحباب، وبه قهر الله عباده. ولكنّ للموت وجهًا آخر.

حسام: تعني أن الحياة تتجدد بفعل الموت.

قلت: أعني أنه لولا الموت لما استمرت الحياة، أو لنقل إن الموت هو أحد أشكال الحياة.

سعيد: إذن فالموت الطبيعي يفي بالغرض من الناحية البيئية، فلماذا تريدني أن أموت قبل فوات الأوان؟

حسام: ومن ذا الذي حدد لك هذا الأوان؟ أليست الأعمار بيد الله؟

سعيد: بلى، ولكني أتساءل: لماذا يزداد متوسط عمر الإنسان في الدول المتقدمة، ويموت الأطفال جوعًا في الدول الفقيرة؟

حسام: حكمة الله سبحانه ولا راد لقضاء الله.

سعيد: ولكنْ، الحرصُ والأخذ بالأسباب واجب.

حسام: «قل يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة» فقد تموت بقذيفة تدهم بيتك وأنت غارق في سباتك.

سعيد: في هذه الحالة لن أدرك أنني قد مت، ولكني لن أذهب بقدميّ إلى حيث الخطر الحقيقي.

حسام: الخطر رابضٌ في كل مكان... لا يوجد على الأرض مكان آمن.

أحس سعيد بالعجز عن الرد فاستدرك قائلًا: ولماذا تحصر النضال والمواجهة في الموت فقط؟ وكأن الشهادة هي الامتحان الوحيد لمعرفة مستوى الانتماء!

حسام: أريد أن نحيا بشرف أو نموت شهداء، ولا أرى إمكانية العيش بشرف وكرامة في ظل الاحتلال.

سعيد: الوطن يتحرر بالشهداء ويُبنى بالأحياء، إنه بحاجة إلينا أحياء كي نعمره، ما قيمة الوطن بلا إنسان؟

حسام: ولكننا تعلمنا من هذه الثورة أن نكون مشاريع شهادة وأن نغلب العام على الخاص.

سعيد: إنني في هذه المرحلة السياسية أستطيع أن أتفهم الظرف الخاص لي ولغيري.

حسام: نستطيع تبرير أنانيتنا بكل بساطة، وأن نجعل من تقاعسنا قمة الحكمة. إلا أنه من العار علينا أن ندعي أننا أكثر ذكاءً من الشهداء، فقط لأننا عرفنا كيف ننجو...

سعيد: نعم فهذه المرحلة التي يسميها الكثيرون «الزمن الرديء»، هي مرحلة الفاسدين وسماسرة النضال الذين ركبوا موجة الثورة في آخر مراحلها.

قلت: وجود المفسدين لا يعني أن المرحلة ظلام دامس، حاول أن ترى الجزء الآخر من الكأس، وأقصد المناضلين الشرفاء.

سعيد: إن هؤلاء الفاسدين يستغلون طاقتنا أحياء ويتاجرون بدمنا أمواتًا، فلماذا أمنحهم دمي؟

قلت: نحن لا نقاتل من أجل هؤلاء؛ بل من أجل الوطن، وهو لنا فقط: نحن الذين ناضلنا من أجله وبذلنا الدماء والآلام في سبيله.

سعيد: لعلك لا تدري أنه بعد سكوت المدافع لن نجني إلا الحسرة ولن نحصد إلا الخيبة، وهؤلاء المنافقون سيزدادون عزًّا وجاها.

حسام: يا أخي نحن نجاهد لنفي هذا الوطن جزءًا من دينه علينا، ومهما قدمنا له سنبقى مقصرين بحقه، وليس لنا أن نمنّ على أحد بذلك، والوطن أكبر من هذه القضايا مهما عظم شأنها في نظرك.

سعيد: أليس الوطن هو الأرض والشعب والتاريخ؟ أم أننا سنختلف على تعريفه؟

قلت: مهما كان تعريفه، ورغم كل الإشكاليات والتناقضات الغريبة في هذا الوطن وفي هذه المرحلة سيبقى شعبنا نموذجًا للتضحية، يقاتل من أجل كرامته ومن أجل أجياله القادمة.

سعيد: نعم أجيالنا القادمة؛ الوحيدة التي تستحق التضحية.

حسام: لقد بدأت تقترب من تبسيط معنى الشهادة.

سعيد: ولكني سأترك خلفي مأساة عائلية ومشروع مشرد بلا ذنب.

حسام: هنالك عائلات فقدت أكثر من نصفها، إن هذا الشعب معطاء وجبار...

قلت: هذا لا يقلل من حجم المأساة، بل يرتقي بها إلى مستوى الفاجعة الأسطورة.

حسام: أسطورة التضحية وملحمة الفداء.

كنا في الهزيع الأخير من الليل، وقد أنهكنا السهر ونال منا التعب. بدأت النار تخبو شيئًا فشيئًا حتى انطفأت تمامًا فغطّت حلكة الليل أفق السماء، إذ كان القمر شاحبًا تغطي الغيوم ثلثيه أو أكثر قليلا، بينما النجوم متشابكة على نحو كثيف، فبدت وكأنها لآلئ تطفو على صفحة ماء وبالكاد تُبدد شيئًا من عتمة السماء، الصمت خيم على الكون لا يخترقه غير عواء يأتي من بعيد، أحسست أني وحدي في هذا الكون، فبدأت أعد النجوم وكأنها لي، حتى تعبت، تساءلت: لم هذا الكون متسع إلى هذا الحد؟ قرأت مرة أن حجم الأرض يعادل ما هو أصغر من الذرة مقارنة بكل المحيطات وربما

كانت أصغر من ذلك بكثير، وأن عمر البشرية كلها ما هو إلا ومضة من عمر الكون الطويل، الطويل جدًّا والكبير جدًّا، إلى حد خرافي عصي على الإدراك، وتساءلت: لم أنتظر هذا الخالق العظيم كل هذا الزمن السحيق قبل أن يأتي مخلوق يخبرنا عن هذه العظمة ويحس بهذا الجمال؟ هل استحق الإنسان هذا التكريم؟ وهل قيمة الحياة هي جزء منه؟ كم هو ضئيل حجم الإنسان أمام الكون! يكاد لا يذكر، وكم هو قيّم بإدراكه هذه العظمة! إنه محور الكون، إنه كل شيء، أم تراه غرور الإنسان وغباؤه يصوران له هذا الاعتقاد!

يبدو أن كل واحد منا قد غرق في أفكاره، فإذ بسعيد يقطع الصمت كمن لدغته أفعى، وقال: ولكني لا أريد أن أجعل من الموت عنوانا للحياة!

حسام: الموت ثالث كل اثنين منا ولا نستطيع الهرب منه.

قلت: في زمن الحروب تتضاءل فداحة الموت لكثرة حدوثه.

سعيد: هل يعني أن الإحساس بالحزن تجاه الموتى سيقل؟

قلت: ربما... وهذا ما يخفف من بلاء الناس وربما يساعد على استمرار العطاء.

سعيد: ولكن يعني أيضًا أن حياة الإنسان كقيمة ستضمحل حتى يتساوى الموت بالحياة!

حسام: هل توهم نفسك أنه بموت الرجل تنتهي العائلة بالضرورة؟ أم أنك بذلك تبرر لنفسك ترددها؟

سعيد: إلى حد كبير هذا الافتراض صحيح.

حسام: لو كان الأمر كذلك لانتهى المجتمع وتوقفت الحياة منذ زمن طويل.

قلت: نعم ولحسن الحظ أن الشعوب الحية قادرة على إعادة الحياة إلى طبيعتها بعد سكوت المدافع؛ بل وأحيانًا في ذروة الحرب والدمار.

حسام: كم من الزعماء ماتوا على مر التاريخ وكان الناس يظنون في كل مرة أن حركة التاريخ ستتوقف بعد موتهم؟ وكم من عزيز علينا غادر وكنا نظن أننا لن ننساه بل سنبكيه كل ساعة؟ أنظر بعينيك الآن، الأمور تسير بشكل طبيعي!

سعيد: نعم، فالشهداء صاروا «بوسترات»، وحيواتهم باتت مجرد ذكرى توغل في عالم النسيان بأسرع مما تتوقع، وشوارع المدينة سرعان ما سيعاودها الصخب ويملأها العشاق.

– قلت: لا داعي للعجب، فإرادة الحياة أقوى من الموت، العصافير ستبني لها أعشاشًا جديدة بدلَ التي خربها المطر، والقطط ستستغل شهر شباط كما ينبغي، وستملأ المياه واديَ الصرار بعد أن جف ونشف، وستورق الأشجار بعد انقضاء الخريف، وفي الربيع سيتفجر السهل بجمال عبقري يورثك الدهشة والتساؤل، أين كان مختبئًا؟

على هذا المشهد أغمضت عينيّ لبرهة واستسلمت لنعاس خفيف. قبيل شقشقة الفجر كان المنظر قد تبدل بالكامل؛ يوشك الليل أن ينتهي وعتمةٌ خفيفة تقاوم النور القادم، لكن بلا جدوى.

بزوغ الشمس يعكس لون الشفق على الأشياء، يتبدل لونها بالتدريج، وتتضح معالمها شيئًا فشيئًا، فتكتشف كم كانت حلكة الليل تغطي أشياء لم تكن تعلم بوجودها، الشمس بقرصها الذهبي ترتفع ببطء ولكن بجرأة، ترسل أشعتها في كل الاتجاهات معلنة ميلاد يوم جديد، تبدأ تسخن قليلا وتبث فينا بعض الدفء كأنها تغسل أدران اليوم السابق، ها هي على علو شبر... رمح... في عنان السماء، تشرع برحلة جديدة في فضاء متخم بالاحتمالات. وبدأ نهار جديد لا أحد يعلم ماذا قد يحمل في ثناياه.

جاء «سعيد» وهو يحمل في يده كوبًا من الشاي يحمل وجهه ابتسامة متصنعة، كان يشعر أن حوار الليل قد أنهكه بقدر ما فتح عليه بوابة من الأسئلة، فبادرنا القول: كل محاولاتكم لتسطيح معنى الموت لن تجدي نفعًا، لأن الموت شيءٌ رهيب، كلمة الموت بحد ذاتها في منتهى القسوة.

قلت: الحياة لا تعني شيئا للميت، كما كانت لا تعني شيئًا للحيّ قبل أن يولد...

حسام: فهمت قصدك، تريد أن تقول إنه قبل أن تولد لم تكُ شيئا مذكورًا، وبعد أن تموت ستصير نسيًّا منسيًّا.. وفي كلا الحالتين لم يكن في الكون ما يعنيك بشيء، لأنك ببساطة لست من مكوناته.

قلت بل هو أبسط من ذلك بكثير، فالميت نفسه مثلا لن يعني له الأمر شيئًا على الإطلاق... لأنه ميت لن يشعر لا بالألم ولا بالحزن ولا بلوعة الفراق.

أحسست كما لو أن الجملة الأخيرة كان لها تأثير غير متوقع، ولتوضيح فكرتي ضربت مثالا: تخيل لو أن شخصًا ما نام بين الأزهار والرياحين في صالة مغلقة وكان يتقاسم معها الأوكسجين، فلما نفذ مات... هكذا مات بكل بساطة دون أن يحس، وكان آخِر ما تنشقه رائحة الورود، ولو أن شخصًا آخر مات في انفجار نووي، ذاب عظمه ولحمه في ثوانٍ وفجّر دوي الصوت دماغه، فهلك على الفور... ما الفرق بين الحالتين؟ بين من مات في الجحيم النووي، والآخر الذي مات في ظل شجرة بعد أن أكل حتى أُتخم وشرب حتى ارتوى وأسلم عينيه للنعاس وراح في سبات أبدي؟

ومثال آخر: إذا ما ضرب نيزكٌ ما الكرة الأرضية فأتى على كل من فيها في غمضة عين، فتركها قاعًا صفصفًا وبلقعًا خرابًا ولم يبقَ فيها مخبّر، ماذا سيعني الموت لأي إنسان طالما أن الكل قد قضى نحبه؟ وبماذا يختلف ذلك عن الميتات الأخرى التي تجري في كل لحظة؟ أي بالنسبة لكل ميت! أعتقد أن الأمر سيمر على كل واحد من سكان الأرض تمامًا كما مرَّ الموت على صاحبنا الذي شواه الفرن النووي ولم تتح له فرصة الإحساس بالألم، أو ذاك الذي نام فمات ولم يدرك أنه مات! أرأيتم كيف أنّ الميت أو الشهيد لن يشعر كلاهما لا بالألم ولا بالحزن ولا بلوعة الفراق؟

سعيد: كما أنه لن يستفيد من هتافات المشيعين ولا من كلمات الرثاء.

حسام: ولكن أهله سيرثون كل هذا المجد.

قلت: الأهل وحدهم هم من سيتجرع كأس الحزن والأسى وتكتوي قلوبهم بلوعة الفراق ووحشة الوداع الأبدي، أما الشهيد فسوف يوغل في الغياب... ولن يعود أبدًا.

حسام: ولكن هذا الأسى لن يدوم طويلا، فمن رحمة الله علينا أن منَّ علينا بنعمة النسيان.

سعيد: وهل تظن أن أقرب الأقربين قد ينسون؟

حسام: الزمن كفيل بمداواة أعمق الجروح.

قلت: في الحياة أشياء لا يمكن تعويضها بأي ثمن، وما من أحد يملأ الفراغ الذي يتركه الآخرون.

حسام: بالإرادة والمثابرة نبني كل شيء من جديد.

سعيد: ولكن، هناك أطفالٌ سيشردون...

قلت: ولن يعني وجودك على قيد الحياة أنهم سينعمون بالأمن والسلام ورغد العيش.

أحس حسام وكأنه قد كسب الجولة فأراد أن يعزز ذلك فسأل بنبرة من يريد أن يغالط الآخر: هل ستخاف من الموت لو كنت أعزبًا؟

أجاب سعيد على الفور: أنا شخصيًّا سيقتلني الفضول وأنا ميت لأعرف ماذا حل بالدنيا من بعدي!

حسام: وهل تظن أن الإنسان من بعد أن يغادر هذه الدنيا سيحن إلى الرجوع؟ وهل سيعني له ما يجري على الأرض شيئا؟ أشك في ذلك.

سعيد: ولكنه إلى جانب خسارته الفادحة بالموت سيحرم من معرفة أشياء كثيرة وأحداث عظيمة ستحدث من بعده، ولن يسمع إجابة شافية عن أسئلة محيرة لطالما راودته...

عندما جاء دوري في الكلام أجبت بثقة: أما أنا فلا أخاف من الموت ولا أحبه، عندما ساقوني إلى السجن لم أتضايق، وعندما حُكمت بعشر سنوات لم أحزن، كنت سعيدًا بتضحيتي لأنها كانت منسجمة مع المرحلة وكانت الأهداف كبيرة ومختلفة، ولم أشعر أني فراشة حطت على ظهر فيل! كما أني لم أحفل للمجد الذي تحقق لي خارج الأسوار ولم تعنيني هتافات المتظاهرين المطالبين بإطلاق سراحي، ولم أكتوِ بنار الفرقة ولم أسمِّ الغياب جدار الصمت، ولم أعتبر كل أرض خارج جرحي زبدًا، ولكني فرحت كثيرًا عندما تحررت، كان ميلادًا آخر، كان رائعًا.

سعيد: كل هذا لأنك كنت على قيد الحياة.

قلت: بل لأني كنت على قيد الحلم، الإنسان يموت عندما يكف عن الحلم...

حسام: أستغرب من هذا الكلام! وكيف يكون المرء سعيدًا وهو يرى أيامه تسفك على عتبة السجن، وشبابه ينساب منه كما ينسلّ الماء من الكف؟ ولماذا نتشبث بمثل هذه الحياة؟

سعيد: الحياة بحد ذاتها قيمة كبرى، وهي أعظم منحة من الخالق، لا يحق لأحد أن يفرط بها أو أن يصادرها من الآخرين.

قلت: نعم صحيح، فبمقدار ما رأينا بساطة الموت، يجب أن نقدر قيمة الحياة، والحياة ليست فقط قدرتنا على تنفس الأوكسجين، هي ذكرياتنا وأحلامنا وعذاباتنا وخيباتنا، هي الدقائق التي نسفكها دون أن نشعر بقيمتها...

سعيد: سأسألكم سؤالا افتراضيًّا: لو أن ثريًّا مهووسًا قدم عرضًا غريبًا مفاده أنه سيشتري منك ذاكرتك بمبلغ خيالي، أي أن تصبح بلا ذاكرة وتبدأ حياتك من الصفر، مع ثروة من ملايين الدولارات! أو عرضَ عليك مبلغا سخيًّا من المال مقابل أن تتوقف تمامًا عن أحلام اليقظة، وتصبح إنساناً آليّاً بلا أحلام، ماذا سيكون ردك؟

حسام ضاحكًا: الأمر يعتمد على المبلغ المعروض...

سعيد: نعم، أنصحكم بالتأني في الإجابة.

قلت: ما قيمة الإنسان بلا ذاكرة وبلا أحلام! رغم ذلك تبقى الحياة بحد ذاتها هاجس الإنسان الخالد ومطلبه الأساسي... هل حدقت في عيني سجين ينتظر تنفيذ حكم الإعدام بحقه؟

سعيد: نعم أتذكر «نايف الشايب» الذي انتظر تنفيذ الإعدام خمس سنين، أذكر كيف ضمرت عضلاته وهزل جسمه وخبا بريق عينيه وشاب شعره، واستبدت به الأمراض واستولت عليه الكآبة، الله وحده أعلم بالليالي التي جافاه فيها النوم، كم عانى هذا المسكين، عندما تنظر في عينيه تجد حزنًا عميقًا ورجاءً حارًّا ورعبًا ما مثله رعب، وأحيانًا كانت تقدح بشرر الغضب فيخافه كل من حوله، لقد مات مئات المرات قبل أن يموت آخر مرة، كان يتمنى لو

يستبدلون حكم الإعدام بالسجن مدى الحياة، وكان يقول من يدري حينها ربما يأتي الفرج، كان يموت عندما يفقد ذلك الأمل ويستبد به اليأس.

حسام: وما هي قيمة الحياة عندما يُهدر أكثر من شطرها في زنزانة ضيقة بين جدران صماء؟

قلت: ستجد الجواب في الطبيعة، أنظر كيف انبثقت الحياة ضمن أقسى الظروف! العشب ينبت من بين مفاصل الصخر، في قاع البحار ستجد أسماكًا عرفت كيف تتكيف مع العتمة، وبين كثبان الرمل في الصحارى القاحلة ستجد عضيات تنتظر المطر سنوات، وعلى قمم الجبال سترى نسرًا عائدًا إلى عشه وفي فمه عشاء لفراخه، إنه صراع البقاء المرير حيث شق الإنسان طريقه ليصبح سيد الكائنات.

سعيد: بل ستجد أجوبة بين البشر الذين يسكنون الأسكيمو أو الغابات المطيرة أو الصحارى الحارة أو الجزر المعزولة في قلب المحيطات أو في أكواخ الصفيح وبيوت الطين أو في المقابر وتحت الجسور وفي كل مكان، تشبث بالحياة مهما كان نوعها...

حسام: وهل للحياة قيمة إن لم يكن لها معنى؟ أم أنها مجرد حياة والسلام!

سعيد: قيمة الحياة أن تدرك أنك حي وأنك موجود وتسعى إلى هدفٍ ما...

قلت: صحيح... أنظر مثلا للسمكة تفقس بيوضها وتعيش وتموت دون أن تدرك أنها سمكة! والقطة قد تخرمش صورتها في المرآة، والحصان لا يعي حجم قوته فيسوسه صبي صغير!

سعيد: نعم صحيح... فأنا إنما قصدت الحياة بالمعنى الاعتباري لا البيولوجي فحسب...

حسام: وما رأيك في المنتحرين ومعظمهم من المترفين من الدول الراقية.

سعيد: ببساطة هؤلاء موتى منذ زمن، لأن حياتهم بلا معنى ولا هدف، فاجتاحت نفوسهم الكآبة وقضت عليهم.

قلت: أنظر في المقابل للمتطوعين الأجانب الذين يأتون إلينا من أقاصي الأرض ليتضامنوا معنا، إنهم آمنوا بعدالة قضيتنا وأرادوا أن يجعلوا لحياتهم معنى، وأن يصنعوا شيئًا مفيدًا يحسون من خلاله بقيمة الحياة وقيمة الهدف، حتى لو كلفهم ذلك ثمنًا فادحًا.

حسام: لا تنسَ شبابنا المجاهد الذي هاجر إلى أفغانستان والشيشان وضحى بدمه.

سعيد: ولكنهم مقابل ذلك كانوا يطالبون الله بأجر عظيم، ويتوقعون منه جنات تجري من تحتها الأنهار.

كان لهذه الجمل الأخيرة وقعٌ قاسٍ على نفسي، فأطرقت رأسي قليلا ثم حدقت في نقطة غير محددة وأطلت النظر وتساءلت: هل كانت حياتي تحمل معنى ذا قيمة؟ وهل للإنسان في مجتمعاتنا قيمة؟ يمضي حياته إما في غياهب السجون أو مطاردًا أو منسيًّا أو يمضيه في أحسن الأحوال ينتظر آخر الشهر، انتهاء القرض، تحسن الأحوال، الترقية، الفرصة، الطابور... بكلمة واحدة: ينتظر الفرج،

والذي غالبًا ما يأتي متأخرًا وبعد فوات الأوان، بعد أن يبلغ من الكبر عتيًّا، وأحيانًا لا يأتي أبدًا.

قلت في نفسي: لا بأس، ها هي أيامي تتناقص وأنا على عتبات خريف العمر وقد أخذ الشيب يحل محل الشباب، هل هذه نهاية المطاف؟ وما الفرق بين سن العشرين والخمسين؟ وما الفرق بين أن تكون رجلا أو امرأة؟ أن تكون أبيض أو أسود؟ المهم هو إحساسك تجاه نفسك، رضاك عنها وثقتك بها، قناعتك بذاتك، ولكل عمر استحقاقه، صحيح أن العمر يتقدم والأيام تجري بسرعة رهيبة، ولكنك ترى أطفالك يكبرون، تجدد حياتك من خلالهم، وبهم تحقق ما عجزت عنه من أحلامك... ثم أدركت حقيقة مرعبة... نعم أطفالنا يكبرون وهذا شيء رائع، لكنهم يكبّروننا معهم ويدفعون بنا نحو نهايتنا... تكبر طفلتي وتزداد شبابًا ومعها تصبح نهاية أمي مسألة وقت لن يطول... وربما نهايتي أنا!

سألت «سعيد»: بماذا تحلم يا صديقي؟

سعيد: أحلم بأن أتمشى مع حبيبتي في حديقة عامة ثم نعرج على السوق وفي المساء أرجع إلى بيتي ككل العصافير وأنام دون أن أسمع نشرة الأخبار.

حسام: أنا شخصيًّا سأخجل أن أردد مثل هذا الكلام على مسمع من الشهداء.

سعيد: لماذا؟

حسام: لأنهم لم يموتوا كي تنعم بالفراش الوثير أنت وأمثالك من المترفين...

سعيد معاتبًا: تتحدث وكأن حلمي قد تحقق، إننا جميعًا سنبقى حراسًا على الحلم ونزرع السوسن على قبر الشهيد.

حسام: أنت تناقض نفسك ولم أعد أفهمك!

سعيد: وأنا أيضًا لم أعد أفهم نفسي، فطالما تدفن الأحلام وتتبدل المفاهيم وتتقزم الأهداف وتحتضر القيم، سنبقى في دوامة.

حسام: ولكن الصورة الآن في غاية الوضوح: شعبٌ منتفض وعدوٌ مجرم ومن يصبر ينتصر.

قلت: أنا مع التبسيط وضد التسطيح، وهنالك أمور كثيرة مهمة ستظهر في سياق هذه المواجهة الشاملة، وينبغي طرحها بقوة، الآن وهنا.

حسام: ومتى سينتهي هذا الحوار؟

قلت: عندما ينتهي الصراع، وقبل أن تسألني متى ينتهي؟ سأجيبك بأنه سيزول بزوال أحد طرفيه.

حسام: ولكنهم حتى لو بدلوا الأهداف، وغيروا الوسائل وفرغوها من المحتوى؛ فالوطن سيبقى في مكانه وضمن حدوده الطبيعية.

سعيد: ولكن، هل الوطن هو التراب والحجارة والمدن الكئيبة والشوارع التي تملؤها المطبات؟

حسام: بل هو الأرض التي تضم قبور أسلافنا والتراب الذي ارتوى من دماء شهدائنا، والحجارة التي نقشت عليها أمجادنا الغابرة... هو تاريخنا المجيد وحاضرنا الذي نسعى إلى تحقيقه... مهما كان بائسًا.

قلت: لماذا لا يكون هو الفضاء الذي نعيشه بحرية، والهواء النظيف الذي نتنشقه صباحًا، والكرامة التي نحياها كل دقيقة، والحلم الذي نركض خلفه، أي حيث ننام ملء العين ونمشي دون خوف؟ وهذا الوطن الذي أتخيله لا تحده جغرافيا، ولا تقيده حدود سياسية فرضتها سطوة الأقوياء في عالم الخوف والكراهية والحروب.

حسام: إذن، أنت تبحث عن مجرد حياة مرفهة ناعمة، بغض النظر عن المكان والاعتبارات الأخرى.

تدخّل سعيد على الفور كعادته حينما تستفزه بعض الأسئلة: أنا أبحث عن الحياة وأريد أن أعيشها إلى نهايتها، وآخذ من كل ما تعطيني إياه، ومن كل ما هو متاح أو حتى غير متاح، لأنها هبة الله الكبرى التي لا يقدمها إلا مرة واحدة، فنحن لن نعيش مرتين.

حسام: ولكنك في نهاية المطاف ستموت، فماذا أعددت لآخرتك؟

سعيد: كل من على وجه البسيطة سيموت يوما ما، لا شك في ذلك، وليس كل من عاش عليها عاش حياة حقيقية.

قلت: أما أنا فأبحث عن قيمة الحياة ومضمونها وجوهرها، أبحث عن فهم ديناميكيٍّ للحياة. فهمٍ يسبر أغوارها ويغوص في تلافيفها، ويقدم أجوبة حضارية إنسانيةٍ لمعناها الحقيقي.

حسام: ألا يمكن أن تتنازل عن بعض هذه الأجوبة وتقبل بعيشة عادية مقابل أن تبقى صامدًا في وطنك منتميًا لشعبك وأمتك؟

قلت: لقد تنازلنا عن الحياة نفسها منذ زمن، لأننا تنازلنا عن حقنا في الحرية، ولم نمارسها كما ينبغي.

سعيد: فعلا، نحن الشعوب العربية لم نمارس الحرية الطبيعية، وقد حُرمنا منها عصورًا طويلة، فالحرية ليست أن تصحو صباحًا بإرادتك دون أن يوقظك أحد، أو أن تهيم على وجهك في الأسواق على غير هدى، أو أن تعود إلى البيت في ساعة متأخرة دون خوف من زوجتك... الحرية الحقيقية شيء مختلف تمامًا... هي جوهر الحياة ودرتها النفيسة.

قلت: نعم، الحرية لا تقدر بثمن وهي أهم أركان الحياة، ولكنها ليست كل شيء... الحياة يا صديقي بمعناها الإنساني تكمن في الحب... بمعنى أنك ستعيش كإنسان حينما تفرغ كل ما في صدرك من غضب وكره وتملؤه بالحب.

حسام: وكيف سأحب أعدائي الذين سرقوا مني حياتي وحرموني كل شيء جميل؟

قلت: لا أحد يطلب منك أن تحبهم، ولكن من غير المعقول أن نملأ قلبنا حقدًا تجاه الآخرين لأنهم لا يتفقون معنا على عطلة نهاية الأسبوع، أو على اسم المعبد الذي سنصلي فيه جميعا للإله نفسه، أو لأننا تصارعنا معًا على قطعة أرض، أو على توسعة نفوذ أو هيمنة على البشر والمقدرات، أو نتيجة حسابات سياسية عقيمة.

سعيد: قد يُشفي الحب الجراح، ويطهر القلوب ويفتح آفاقًا رحبة للإنسانية جمعاء، ولكن المشكلة تكمن في طبيعة البشر المجبولة على الشر والكره.

حسام: أرى أنكم رحتم بعيدًا في فلسفة الأمور، وبدأتم تتهربون من الواقع، وتتعامون عن رؤية الأشياء.

قلت: في زمن الهزيمة وجغرافيا الانكسار والفضاءات المتهاوية، وفساد الذوق وتهدم القيم أحتفظ بحقي في الحزن، وحقي في القلق، وأتكئ على روحي كي لا تسرق مني، وأشم رائحة اللقاء الأول، فأحضن ذاكرتي؛ لئلا تنساب منها الصور، وأنقش صورة حبي على المرآة وأحميها من اللصوص، ثم أغمض عيني وأنام.

حسام: أما في زمن البذل والفداء واجتراح المعجزات ورؤية تباشير النصر وتصدع صخرة العدو على مذبح الشهادة، فيحلو الكلام عن التضحية وتلمس النور المبين وشم روائح الجنة، وسماع زغاريد النساء في عرس الوطن.

هنا أغمضت عينيّ وهمست في داخلي لأبوح لها بما يجول في خاطري: هل الموت صعبٌ ومؤلم إلى هذا الحد؟ وهل الشهادة أمرٌ عظيم؟ هل هناك ما هو أغلى من حياة الإنسان؟ صحيح أن الحياة غالية والروح عزيزة ولكن، ما قيمة الحياة بلا كرامة؟ وهل هناك إنسان قادر أن يعيش دون وطن، وهل فعلا أن الشعب على علاته في هذه المرحلة، مهما كان اسمها، يستحق أن نضحي من أجله؟ وهل الأجيال الصاعدة تبشر بالكثير؟ سؤال مهم... لأن ابني سيكون ضمن هذه الأجيال...

فكيف سيستقيم الحلم؟

حشاشو بغداد

وبعد وفاة «المستنصر»، بويع الخليفة الفاطمي «المستعلي بالله»، بدلا من أخيه «نزار» الذي كان ولياً للعهد وطامعا بالخلافة؛ فأخذ الشيخ «حسن الصبّاح» ينادي بخلع «المستعلي» ومبايعة «نزار»، إلا أن «نزار» قُتل في قاهرة المعز بعد وفترة وجيزة على يد مجهولين، فصار الشيخ «الصبّاح» زعيم الحركة النزارية الجديدة في بلاد الرافدين وفارس، وأخذ يدعو إلى الإمام المستور، بعد أن دامت دعوته لردح من الزمن للخليفة «الظاهر». ثم نصَّب نفسه إماماً ومعلّماً معصوما.

في أطراف بغداد، على ضفاف دجلة، في واحة من واحاته الغنّاء، التي تحفُّ بها البساتين والكروم، شيّدَ الإمام «الصبّاح» قصره الشامخ، وزرع من حوله النخيل والأعناب، وأحاطه بسور عالٍ، زيّنه بالنقوش والزخارف. وكان جُند «الإمام» يأتون بالفتية والشبان، يجلبونهم من الولايات البعيدة، يسوقونهم في رحلة مضنية على الجِمال والبغال، وقبل أن يصلوا مقصدهم بفرسخ أو فرسخين، ينيخون ركبهم ويستريحون، فيسقونهم قليلا من الخمر، ثم يدسّون

في طعامهم بعض الحشيش، وقبل أن يفيقوا من سكرتهم، وهم بين الصحوة والنوم، رؤوسهم ثقيلة، ونظراتهم طشاش، يُدخلونهم من باب لم يروا من قبله مثيلا، يمضون ليلتهم الأولى وهم لا يعرفون إذا كانوا في الأرض أم في السماء.

مع شروق الشمس يصحون، على زقزقة العصافير، فيجدون أنفسهم متكئين على أرائك من البوص الليّن، تحت الظلال الوارفة، وبين قنوات المياه المنسابة من حولهم بخريرها الساحر، ولونها الشفاف، فتتراءى لهم صور الجنة، ثم تدخل عليهم الصبايا الحِسان، كاشفات عن سيقان ناعمة، بيضاء كالمرمر، وصدورٍ كالبلور المنثور، يتراقصن بميوعة وخجل، ومن خلفهم نسوة أخريات يضربن بالدفوف، ويطفن عليهم بكؤوس الخمر .. فيأتي الإمام «الصبّاح» لابسا ثياباً من استبرق خضراء اللون، ووشاحاً مطرزاً بالحرير، ويقول لهم بصوت واثقٍ هادر: أنتم هنا في الفردوس الموعود، ولدينا المزيد .. من النساء، والثريد .. ذلك لأنكم سلكتم طريق الحق .. أنتم أبنائي وأحباب الله .. إن اتبعتموني بقيتم في النعيم، وإن عصيتم أمري ساءكم عذابي .. وجهنم وبئس المصير ..

ثم يأتي بـ«المسترزق»، وهو عالمٌ بالسموم، وخبيرٌ بالأعشاب والتداوي بالسحر، وقد نشأ بين الحـيّات والعقارب، واتخذ من تربيتها صنعة يتربح منها، فضمّه «الصبّاح» إلى جنده، وقرّبه منه، كان يقف أمام جمهرة من أتباعه، يغمس خنجره في خرقة منقوعة بسم العناكب، ثم يجرح به أحدهم، فيخرُّ مغشيّاً عليه، تنقطع أنفاسه،

ويهمد قلبه، وتبرد حرارته، وتنشل حركته، فيبدو ميتا بالفعل، وبعد ساعة أو أكثر قليلا، يأتي الشيخ «الصبّاح»، فيقرأ فوق رأسه تعاويذ الشفاء، ويشمّمه بعض البخّور؛ فيفوق هذا الميّت من غيبته، وتدب في أوصاله الحياة. وعلى الفور تصيح الجموع برعب وجنون: الله أكبر، الله أكبر .. وتبدأ بتقبيل يدي الشيخ، والتبرك به.

وظل الشيخ يحشد أتباعه، ويعدهم بالنعيم، ويسحرهم ببخّوره وتعاويذه، حتى صار له جيشٌ من الحشاشين .. يرتعدون إذا زجر، ويطيعونه إذا أمر، حتى لو ساقهم إلى حتفهم. فأطلقهم في الدروب والحارات، يقتلون وينهبون، ويحرقون بيوت الناس وحوانيتهم؛ حتى زرعوا الخوف والرعب في بغداد وما حولها، وكافة أوصال الدولة السلجوقية وبلاط العباسيين.

أما الوزير السلجوقي «نظام الملك» فأعدّ عساكره للمواجهة، ونشر عسَسهُ في كل زقاق وحي، لمحاربة العصابات «الصبّاحية» المسلحة. كما جنّدَ رهطاً من الفقهاء والمتكلمين لدحض نظرية الإمام، وإبطال مفعول الحشيش، وأصدر «بيان التهافت»، لفضح الحكمة المشرقية، وفلسفة خراسان وما حولها.

وظل كلَّ طرفٍ يحشدُ من حوله الأتباع والمريدين، والصراع بينهما محتدم، بين كرٍ وفر، يهمدُ بُرهة، ثم ما يلبث أن يشتعل .. حتى أهلك الحرث والنسل .. قبل سنوات قليلة، ضم اجتماع طارئ للإمام «الصبّاح» على طاولة مستديرة مع أيمن الظواهري، وأبو بكر البغدادي، وأبو حفص الموريتاني، ورمزي بن الشيبة، وأبو يحيى

الليبي، وأبو حمزة المصري، وأنور العولقي .. وآخرين، لمناقشة كيفية إدخال تقنيات جديدة ومستحدثة على تجنيد الانتحاريين.

وفي مكان غير بعيد، عقد الوزير السلجوقي قمة طارئة حضرها المالكي والأسد وخادم الحرمين والشيخ تميم ولفيف من الزعماء والقادة، لمناقشة الاستعانة بالروم في حربهم على الإرهاب.

المحتويات

من سرق روايتي؟	9	أمام مجلس الوزراء	89
حارس العمارة	13	تائه في مدينة	99
في محطة الباصات	17	صانع الأفراح	103
الغيمة التي أمطرت إسمنتا	21	مذكرات رياضي	107
الغرفة	25	كزدورة عَ الرصيف	111
حقيبة مدرسية	29	مندلي	118
خمس دقائق فقط	31	تمثال في صالة الترانزيت	119
بقالة تشرين	35	استعجال	125
أين اختفى أبو العبد؟	39	مجرد تشابه	127
الخفاش	45	نملتان	131
لاجئ سوري	57	الحصان الذي خذلته روحه	135
نساء سجينات	59	وقائع موت حمار	139
دار الحنان اللي بالعطيفية	67	يوم مختلف في حياة امرأة	141
أخيار وأشرار	73	يوم هندي في استوكهولم	147
إعلان في جريدة	77	أبو مسهل الحمراوي	151
قطة أبو جابر	81	فانتازيا أفغانية	171
ونِعمَ المربّي	85	حوار بين الحلم والشهادة	185
الرئيس وآينشتاين	89	حشاشو بغداد	219